رجل بقلب صناعي

رجل بقلب صناعي

رواية

تأليف : يان هروشوفسكي
الغلاف : هانيبال – هيبو

الطبعة الأولى / القاهرة ٢٠١١

ISBN: **978 – 977 – 6299 – 09 – 7**

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو إقتباس أي جزء
من هذا العمل أو كله إلا بإذن كتابي.
ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية
Sphinx Agency © 2011

يان هروشوفسكي

ولد يان هروشوفسكي في ٤ فبراير ١٨٩٢ في مدينة "نوفي ماستو ناد فاهوم" في أسرة متعلمة .. قضي طفولته في مدينة "مارتن" ثم تخرج في مدرسة التجارة العليا في مدينة "رافوتسا" .. تنقل قبل الحرب العالمية الأولى بين مختلف الوظائف .. شارك في الحرب العالمية الأولى على الجبهة الأمامية .. عمل بعد الخدمة العسكرية كمحرر في "الجريدة الوطنية" وفي جريدة "الشرق السلوفاكي" ..أقام للدراسة بإيطاليا في الفترة من ١٩٢٠-١٩٢١ .. عمل بعد عودته كصحفي في جريدة "أخبار اليوم السلوفاكية" وفي جريدة "السياسة السلوفاكية" وفي عام ١٩٤٦ وحتى سن المعاش.. عمل كمحرر في مجلة "الحرية"، توفي يان هروشوفسكس في ٧ مارس ١٩٧٥ في مدينة براتسلافا.

يعتبر هروشوفسكي من جيل الفترة الانتقالية بين الواقعية والحداثة في الأدب السلوفاكي .. كتب العديد من القصص والروايات من بينها "بومبيليو والعذراء" ، "دولوروزا" ، "الرجل ذو القلب الصناعي" ، "بيتر بافل على أعتاب عالم جديد" ، "يانوشيك" ، "بطل وفي" ، "الوردة والعرش".

تدور معظم أحداث رواياته في بيئة أجنبية .. الشخصيات غير تقليدية والصراع يميل إلى الدراما.. السرد غالبا ما يكون على شكل إعادة تقديم لما سمعه من حكايات أو على شكل ذكريات أو يوميات .. حاول الكاتب إيجاد لغة جديدة وأسلوب مختلف في الكتابة عن غيره من الأدباء السلوفاك.

قصة "الرجل ذو القلب الصناعي" والتي نشرت لأول مرة عام ١٩٢٥ مع عنوان فرعي "حكاية الملازم أول "سيبورن" تتناول قضية الهوية، بطل القصة الضابط "ماكسميليان سيبورن" الذي يطلق على نفسه "الرجل ذو القلب الصناعي"، إن موتف زرع الأعضاء يرمز في اتجاه الحداثة غالبا إلى نقطة الضعف، مثله الأعلى هو "بيتشورين" ، بطل رواية "أبطال لكل العصور" للكاتب الروسي الشهير "ليرمونت" التي تتحدث عن أبطالا عاجزين عاطفيا ..

إن "سيبورن" في القصة يعاني من حالة انفصام في الشخصية وهو أيضا موتف معروف في اتجاه الحداثة بالازدواجية .. تتحكم في شخصيته الأنا التي تتحرك وتأتي بالحدث والأنا التي تتابع الأحداث وتعلّق عليها، إن "سيبورن" إنسان فخور بوحدته ، لكنه حزين و"كئيب" ومتردد وعاجز ..

استخدم الكاتب لرسم شخصيته مجموعة من أبطال قصص كتاب مثل: "ليرمونت" و "شترندبرج ، "ايبسن" ، "نيتشه" ، "واجنر" ، فيلير ليسلا آدم" ..

القصة تتناول تردد "سيبورن" بين امرأتين ، أحداهما الممثلة "أيرنا" والأخرى سيدة المجتمع "مينا"، لم يتحقق له ما تمناه من خلاص من آلامه على يد حبيبته، مشاعره نحوهما تتأرجح بين السادية والإعجاب ..

كُتبت الرواية على صورة يوميات، يؤكد الكاتب من خلال استخدامه لأسلوب تدوين الأحداث على شكل ذكريات على أزمة

التواصل: (اليوميات كشكل من أشكال العزلة والذكريات كصدى لأحداث بقيت عالقة في الذاكرة).

تعتبر الرواية من أولى الروايات السلوفاكية التى شهدت الانتقال من اتجاه الواقعية في الأدب إلى اتجاه الحداثة.

المترجم

الرجل ذو القلب الصناعي
حكاية الملازم أول "سيبورن"

مقدمة

من هو "سيبورن"؟

هو ملازم أول في السرية التي أخدم فيها، أطلق عليه الضابط "نيكي" ذات مرة اسم البارون الغامض "رابوس"، التصق به منذ ذلك الحين هذا الاسم إلى الأبد.

في الواقع كان الدافع لأن يسميه الضابط "نيكي" بهذا الاسم منطقيا، فقد كان "سيبورن" بالفعل شخصا غامضا ، على الأقل بالنسبة لنا ، نحن الجنود العاديين، فهو أحيانا جادا ومنطويا ، وسرعان ما ينقلب وبدون مقدمات إلى رجل مرح يحب الكلام ثم بعد قليل يصير هائما ومرة أخرى مشتت الفكر ، حاد الطبع ، ببساطة هو إنسان متقلب المزاج و غامض وصعب المراس، شجاعته لا مثيل لها، أحبه رجاله إلى درجة تجعل من أضعف الرجال أبطالا لا يقهرون في القتال.

وصف بسيط لشجاعة "سيبورن"

في نوفمبر ١٩١٧ وأثناء الهجوم العسكري وقبل عدة أيام من موته وأثناء تواجده في جبهة البندقية ذهب تلبية لأحد النداءات مع فصيلته إلى أحد المواقع الإيطالية على جبل "أصولوني" .. عوائق سلكية أقيمت على عجل حولتها قذائف المدفعية إلى أشلاء متناثرة ، بنادق آلية تطلق النار بين الحين والآخر ، لكن طلقات المدافع صمتت .. خلّفت نيران المدفعية حريقا في كل مكان .. موجات من صفارت الإنذار تقترب من الخنادق المدمرة ، انتبه "سيبورن" فجأة إلى أن عساكر يرتدون طرابيش حمراء يخرجون من بين الأنقاض ويتجمعون ويخططون لهجوم مضاد ضد فصيلته الباسلة، بدا أن النصر لن يكون حليف جنوده إلا بمعجزة، فقد كان الهجوم على أشده .. بدأ يسمع أصوات استغاثة ، رأي قنابل يدوية منزوعة الأمان ونيران تنطلق من فوهات المدافع .. مازال في العمر بقية!، قفز خطوتان أو ثلاث خطوات كبيرة حتى استقر بين العسكر وهو يضرب بضراوة بسوط صغير يمينا وشمالا في كل مكان تصل إليه يده .. أربكت شجاعة "سيبورن" عدوه المذهول،تراجع خطوة إلى الوراء ثم سقط، كذلك سقط رجاله، في ذلك الوقت لاحظ "سيبورن" أنه لم يكن يدافع سوى بسيف صغير وأنه كان أعزلا تماما .

نعم ، لقد مات "سيبورن"!

كان هذا في نهاية الهجوم العسكري للإمبراطورية النمساوية المجرية ضد إيطاليا في السابع عشر من نوفمبر ١٩١٧ .. كان يوم من أسوأ أيام الحرب التي عشناها!

لم يتبق لي سوى بقايا سريتين ، كان علينا أن نشن هجوم عنيف على تلال "كول بوناتا" المنحدرة تحت جبل "أصولوني" الذي طال الحديث عنه فيما بعد في فوج سالزبرج.

سقط "سيبورن" على بعد سبع خطوات من المنطقة التي يحتلها الإيطاليون وذلك عندما اندفع مع حفنة من جنود المشاة نحو صوت المدافع الرشاشة، اختفى صوته ثم سقط على الأرض.

- ساعدني ! لقد أُصبت!

هكذا صاح وهو يتحسس مكان الجرح، كان وجهه شاحبا .. كانت هناك إصابة قاتلة في بطنه ولم يكن في استطاعتي مساعدته، كان يجب أن نواصل التقدم، نظر "سيبورن" إليّ مستسلما ، غير معاتبا !

في اليوم التالي إطلعت على ممتلكاته ، لم يكن لديه الكثير ليتركه، حافظة سجائر فضية ، نقش عليها تاج وأحرف من اسمه، ثلاث لفائف تبغ وأوراق مالية صغيرة مجموعها حوالي ثلاثمائة كرون ومنديل حرير أبيض وبعض الأوراق وصورة لسيدة ودفتر تدوين نحيف تكدست فيه الكلمات، كان هذا هو دفتر يوميات "سيبورن".

أدهشني أن "سيبورن" كان يدون يومياته لسببين:

أولا لأنني لم أراه قط يكتب أية ملاحظات ، ثانيا أنه هو شخصيا كان يسخر من الضابط "نيكي" عندما يراه يداوم على تسجيل يومياته في الدفتر، هذا بالإضافة إلى أنه لم يكن عاطفيا وكانت آراءه عن الحياة أحيانا حادة إلى درجة كبيرة، لم يدق على أوتار الحنين إلا بعد أن يتناول كمية كبيرة من الكحول .. وزعنا لفائف الدخان بيننا ، احتفظت أنا بيومياته - كما أوصى هو في

الصفحة الأخيرة منها- ، أما ما تبقي فقد أرسلته على العنوان الذي ذكره، هذه كانت وصية الملازم أول "ماكسميليان سيبورن".

أمامي دفتر يومياته وصورة "مينا رايدنبرج"، تنبعث منها رائحة السوسن وأسمع صوت "سيبورن" عميقا ولطيفا :

- البارون "رابوس" ، الطيب المسكين ، نعم ، المسكين جدا !

هذه اليوميات ليست كاملة وتنقصها البداية، يبدو أن "سيبورن" قد اجتزها بنفسه في إحدى لحظات غضبه، سأعرضها مع تنقيح بسيط وبتصرف محدود.

المؤلف

يقول "سيبورن" :

"إيرنا" نائمة وأنا سعيد بذلك، أريد أن أنفرد بنفسي ، أتأمل مشاعري ، وحدي ، لا يزعجني أحد .

ما هذا الهراء؟! أنا لا أعرف أية مشاعر ، وبالتحديد لا أعرف ما هو المقصود بأن أتأثر ، فلقد استبدلت قلبي بقلب صناعي لذلك صارت حياتي أفضل من ذي قبل، عندما كان لدي ذلك الهراء المجنون المتقلب، في الواقع أنا سعيد بهذا القلب الصناعي، لم يعطني إياه ذلك الرجل الفظيع المدعو "مايكل" من "شوارزوالد"، لكن ها هو قلبي الصناعي، يعمل بدقة كالآلة !

رأيت "مينا رايدنبرج" ، تحدثت معها ، رافقتها إلى بيتها،لو لم يكن لي قلب صناعي بدلا من قلبي لكانت سعادتي غامرة ، لكن بفضل هذا القلب الصناعي الرائع ، لم يكن الأمر سوى مزحة كبيرة !

براءة تنبعث من "إيرنا" وهى نائمة، تتنفس بانسياب ، كلما أراها مستلقية،هكذا باستسلام !.. أنهض من عند الطاولة ، أذهب نحوها،أتحسس ثدييها وشعرها الكستنائي،أنحني عليها لأسمع نبضات قلبها الصغير الهادئ،لكنني اليوم متعبًا وخامدً ، رأسي ثقيل ونعسان وأرغب في الراحة .. يقلبون خارج المدينة العشب الجاف،تنبعث منه رائحة زكية تتغلغل في صدري،رائحة تشبه رائحة السوسن، نعم ، مع قدوم الربيع تفوح رائحة السوسن في كل مكان ، في كل ركن من أركان هذا العالم الفسيح !

ما هذا الذي قاله لي اليوم طبيب الوحدة؟

- عليك أن تتجنب أية انفعالات ، فقلبك مريض!

.. وغد! .. قلبي مريض؟! كيف يمكن لجماد أن يصاب بمرض؟! قلب صناعي ومريض؟! .. قال أيضا أن أعصابي متوترة .. وغد!.. الأعصاب خاصة بالقلب ، وليس عندي قلب ولا أعصاب! ، كيف يمكن أن تكون أعصابي متوترة وليس عندي أعصاب؟!

لقد رأيت "مينا"

نزهة في معسكرات سلاح المدفعية .. غيوم في السماء .. كان الهواء دافئا وتدخين لفافة تبغ في هذا الجو سيكون جيدا، نقيق الضفادع يصدر من البحيرة.

جاء من وراء ظهري صوت ينادي:

- "سيبورن"!

إنه صوت اعتدت النوم عليه وهو يغني لي أغاني عذبة ، صوت من وراء حجاب رقيق ، صوت دافئ ، يصدر موجات ناعمة .

إلتفت إليه فأرى "مينا" تسرع نحوي :

- "سيبورن" .. لماذا تتهرب مني؟! لا يليق أن تتصرف معي هكذا .

(هكذا نادت عليّ وبصيغة المفرد)،بأي حق ترفع التكليف؟!

- أنا لا أتهرب منك .
- أنت تتهرب مني !
- لا داعي لأن أتهرب منك،أتعتقدين أنه يوجد ما يجعلني أتهرب؟!

كانت إهانة كبيرة ، فمن أكثر ما يؤذي المرأة أن تذكرها بسلوك غير مهذب صدر منها وأن ترفض مظاهر الثقة وتتنكر للماضي، مثل هذه الإهانات لا تغفرها المرأة مدي الحياة ، تكفهر وجوههن لمجرد تذكرها ويتحول الحب إلى كراهية شديدة وانتقام بلا رأفة،غير أن

"مينا" خفضت رأسها بخضوع وبدت كالعبد الذي يتلقى إهانات مبررة من سيده .

- هل أنت غاضب؟!

إنها تستحق الجلد بالسوط على مثل هذا السؤال، لكنني أجبت ببساطة:

- أغضب؟! ألا تعرفين- ثم أخذت أحملق في عينيها – أن قلبي صناعي؟!

تملكتها الدهشة وبهت لونها ، كنت أعرف أنها لن تفهم ، الأمر الذي أسعدني كثيرا،ثم ألقت نظرة سريعة على يديّ ورجليّ .

- هل جرحت؟ هل بتروا شيئا من جسمك؟!

لاحظت بمكر أن صوتها يتهدج، فنظرت إلى دخان لفافة التبغ حتى لا ترى ملامح السخرية على وجهي .

- لا ، لم أصب بجروح، رغم ذلك أجرى لي أطباء مهرة العملية .

- أين؟! .. أين؟!

- أها ! هذا خطأك ، لم تحسني التخمين أيتها الحسناء "مينا" .

ربما استنتجت الحسناء "مينا" حقيقة الأمر لكن صوتها جاء متهدجا وعلت وجهها حمرة وتاهت منها الكلمات، فهناك علامات استفهام يظل بعضها دائما بلا إجابة .. كان الظلام قد حلّ ونزل ضباب دافئ غطى المكان وصمت صوت الضفادع .. يبدو أن قلب "مينا" قد تملكه حزن شديد ، ولم تنبس بكلمة.

لم أراها منذ عام ، عام واحد طويل انتهى بأن استبدل أطباء مهرة قلبي بقلب صناعي .. لكنها مازالت كما هى جميلة ، صغيرة و ،،، لا ، لماذا أتحدث عن هذا الأمر؟ إنه عبث ،لا جدوى من هذا الحديث .

لماذا هي جميلة هكذا؟!

كنت أتوقع أن أكتشف عيوبا في وجهها ، شينا قبيحا ، مقززا ، منفرّا أو أسوأ من هذا : مضحكا، لكنها فاتنة ، فاتنة بصورة مينوس منها!

قف! لا تتحدث عن اليأس! فماذا لو سمعك أحد تتحدث عن قلب صناعي يائس؟! إنه تماما كمن يقول أن تمثال "موتسارت" الشهير نهض من على قاعدته الرخامية في الميدان!

إنها تحبني ، وستظل تحبني، رغم الخاتم الذهبي الذي تحمله في اصبعها فهى تحبني، إنها فخورة بنفسها ، تداري هذا، لكنها مثل الكتاب المفتوح ، أقرأه بمنتهى السهولة .

أترين يا "مينا" ! الآن خطرت لي فكرة رائعة، يا لها من فكرة! سأنفذها بحذافيرها وبمكر كالحيوان المفترس، في النهاية سأسحق روحك المسكينة الحزينة وأقسم لكِ بأنني سوف أتلذذ من تعذيبك ، سوف ألهو وأغني وأرقص وأوزع الهدايا وأتجرد من ثيابي، ما أفظع من قلب صناعي تصيبه شرارة قمة النشوة؟!

أتعرفين يا "مينا" من أنا؟!

أنا "بيتشورين"! ، "بيتشورين" الثاني ، احذري أيتها الصغيرة! .. احذري من "بيتشورين"!

اللعنة! لقد عاد من جديد هذا الشيطان الملعون، هذا فظيع! أيّة بركة قذرة تقف خلفي؟! تنسل إلى أعماق روحي ولا تبرحها، ألا يمكن أن تولد لي فكرة واحدة دون أن يهجم عليها هذا الشيطان ويحولها إلى فتات؟ .. لماذا لم يستبدلوا عقلي هو الآخر بعقل صناعي؟! .. ولماذا نولد بهذه المادة الصفراء اللعينة ؟!

لماذا أريد أن أكون "بيتشورين"؟ .. ولماذا هذه الفكرة رائعة؟! تكلم يا "ماكسميليان سيبورن" ، أيها الملازم أول في جيش المملكة والقيصر! .. لا تعدو هكذا تخبّط بقدميك غاضبا وإلا استيقظت نجمة "سالزبورج" من حلمها المجنح وتسوء الأمور! .. هيا! تكلم أيها الملازم أول!

ربما يريد كل منا تعويض الآخر بنفس القدر.

أف ! يالها من فكرة حقيرة وشنيعة! لا أستحق بسببها أن أرتدي معطف صاحب الجلالة .

هذا هراء! أنتقم من "مينا" لأنها تحلّت بالحكمة في آخر لحظة؟! .. هراء، هذا خيانة عظمى، فمن ينتقم؟ أهو ذلك الشخص الذي يريد بهذه الطريقة أن يداوي جرحا عميقا؟ وماذا أكون؟! .. يا ويحي! ، كأنني على وشك الانفجار في ضحك طوعي يصم الآذان، لكني أخاف أن يجش صوتي وتستيقظ "إيرنا".

وما هي الفائدة من هذه اللحظات الطويلة؟، في الواقع هذا الهراء، إذن من الأفضل أن أذهب إلى "شيندلر" لتناول الكحول ثم أقذف بالكأس على الحائط .. لا ، ليس هذا هو الحل !

وجدتها!!

وجدتها! ..نعم! نعم! .. أهذا كل ما في الأمر؟ هل أفرح لآلام الآخرين؟! .. نعم! ، نعم، إنه هو هذا الشذوذ الغامض الحقير بتعذيب الآخرين والتلذذ من دموعهم ، وإشباع النفس بالنظر إلى عذاب الأنفس وكتمان النفَس من السعادة والتألم اللانهائي من آلام الآخرين وإيجاد قمة المتعة في آلامي هذه، وبهذا سأختلف عن الشهير "بيتشورين" السابق، لكن لا أعرف إن كنت قادر على تقييم هذا الخلاف .. لا أعرف ، لا أعرف .. كان "بيتشورين" إنسانا كاملا، رغم أنه كان سفاحا بلا رحمة ! ، لكنه كان إنسانا حريصا حتى في أدق التفاصيل، وماذا أكون أنا؟!.. أنا لا أعرف كيف أصل إلى درجة الكمال ، رغم أنني أكرّس كل جهودي لبلوغ هذا الهدف، وبدلا من رغبة واحدة ، وشعور واحد كبير يتغلغل في كل شيء ، تسيطر علىّ آلاف المشاعر المتطرفة المختلفة والمتضادة، ويحي! يكفي أنه لم تحدث مصيبة كبيرة حتى الآن ! لكن طالما هناك آلاف الأفكار المؤذية التي تتصارع مع بعضها باستمرار في حرب أبدية وتتخبط كل هذا التخبط فستظل رأسي مهددة بالانفجار، أشعر في مثل هذه اللحظات وكأنني أقف على حافة هاوية سوداء ستبتلعني .. ينتابني دوار ورغبة جامحة في النزول إليها والفناء ، الفناء إلى الأبد !

الهدوء ، الهدوء أيها الملازم أول "ماكسميليان سيبورن"! لا تنسي كلمات الطبيب الوغد، ولا تنسى أنك زرعت قلبا صناعيا منذ وقت قريب .

هل كذبت؟! .. لا أعرف ! .. أنا لا أعرف شيئا !

تصبح على خير "سيبورن" .. "سيبورن" الصغير ، أيها الإنسان الوضيع البائس ..استدرت مرة أخرى على جانبي الآخر ولم أرى "مينا"!

لم أكن لطيفا مع "إيرنا" ، بل كنت شريرا، فبكت "إيرنا" ، ودموع النساء عندي كجهنم حمراء !

جلست مع "إيرنا" عند محل "توماسيللي"

كاد ميدان "فيكتور لودفيت" يخلو من البشر، تموج فوق الأسطح موجات هواء عنيف ، لا يوجد أثر لإنسان أو حركة تذكر، حلّ على المدينة سكون داهم دفن معه كل مظاهر الحياة .. أيام تعسة !

كانت "إيرنا" منهمكة في متابعة الزهور في "سيملبيسم" ومن وقت لآخر تروي ظمأ شفتيها بعصير التوت، وأنا انظر بدون هدف إلي الشارع.. أمر يدعو للسأم !

أريد أن أكسر هذا الملل الثقيل الكئيب وأهتم بشفتيّ "إيرينا" ، هذه لا تدعو للسأم!، بل على العكس، إنها شفاه بنيّة مائلة للاحمرار ، مثيرة للحواس إلى درجة الجنون، لكنني عندي رعب غير مبرر منها، فلونها الأحمر يذكرني بالدم المحلى والخرافات الغربية حول مصاصي الدماء !

نظرت إليها طويلا وأطلت النظر .. في تلك الأثناء احتل الطاولة المجاورة زبائن لم أشعر بقدومهم، لقد فتنتني شفتيّ "إيرينا" الحمراء ، شعرت بدوخة من جو المقهى الخانق .. وفجأة أشعر بأنني أفقد توازني، انحنيت على "إيرنا" وأخذت أقبلها بشدة .

- "سيبورن" ماذا دهاك؟! هنا في المقهى وأمام الغرباء .. هكذا ؟!
- هكذا !

إن "إيرنا" امرأة فاتنة، لم تغضب ، بل ضحكت بدهشة .. على أي حال الخطأ ليس خطأي، بل هو ذنب الجو من حولنا ولست أنا.. كانت تعي هذا جيدا .

قالت وهى آسفة:

- "سيبورن" المسكين !

وبعد لحظات قالت:

- انظر إلى تلك السيدة التي تجلس في الركن الآخر من المقهى ! انظر جيدا! إنها تصلّح عينيها!
- دعيها تصلّح!
- "ماكس"! إنها تنظر نحوك ألا تسمع؟

عندما استدرت نحو الطاولة التي أشارت إليها ، التقت عيناي بنظرة مليئة بالذعر والاستغراب .

ألقيت التحية على "مينا" وخطيبها.. سألتني "إيرنا":

- هل تعرفها؟

لم أرد ! .. كانت نظرة "مينا" تقول لي أنها لم تنم الليالي وأنها تعذبت في هذه الليالي التي قضتها وهى متيقظة بآلاف الذكريات .

همست لنفسي وأنا أتلذذ من فكرة الألم هذه:

- كيف تعذبت ؟! .. كيف؟!

ناديت بصوت عال حتى أدفع ابتسامة النصر من على وجهي:

- "كيلنر"! كأس لكيلنر !

لكنني لمحت نظرة تحدي في عيني "مينا" في هذه اللحظة ، ثم استدارت ناحية خطيبها الجاد لتهتم به، تحدثت بصوت عال لافت للنظر وبسعادة واضحة إلى درجة بغيضة،

أخذت تضحك من كل كلمة غبية .. بدت كغيرها من أغبياء سالزبرج !

آه يا عزيزتي! احترسي! أنت تضحكين لكن نفسك حزينة متعبة ولن أرحم ضعفك !

رفعت رأسي ونظرت بحدّة إلى "مينا" .. على الفور شعرت بأني أنظر إليها ، أرادت أن تتجنب نظراتي لكنها لم تقو عليها، أجبرتها أن تنظر إليّ! .. لماذا تنظرين هكذا عزيزتي، لماذا أنت خائفة؟! حقا؟! ..ألم تري بعد إنسانا بقلب صناعي مكان قلبه؟! .. إذن فانظري جيدا .

لكن مساء! وما سيكون في المساء! يا الهي! أنا خائف من ساعات الليل تلك، رغم قلبي الصناعي المسكين ، البائس .

التبغ رطب ، وبين لحظة وأخرى وبينما أنا أكتب سينطفئ الغليون، سأشد أذن بائع التبغ الفاسد "فرانك"! .. "إيرنا" كذلك لا تهتم بشيء ، فلو لم تكن في المسرح، فهي تعتني بأظافرها وتضجع على الأريكة، الجميع وقفوا ضدي.

كان نجاح "إيرنا" لا مثيل له، أربع مرات استدعوها على خشبة المسرح ، تبدو كطائر القنبرة في زيها الرائع المحلى بالأشرطة .. الشبان المتحمسون وحتى المعاقون في مقصورة المسرح يلقون بالورود تحت قدميها وبخاصة من هم في آخر المقصورة، أحدهم وهو البارون "ولفيج"،تحرك من المقصورة بجرأة ففقد توازنه على الفور حتى اضطر الناس إلى رفعه وسحبه من مؤخرة سترته الرسمية !

مجانين !

كانت طوال الوقت ملكي أنا، وكل ما هو عاطفي بدا من كلماتها الدرامية حقيقيا! .. كان يدور في غرفتنا الصغيرة،كل حركة تأتي بها تتحدث عن حبنا، كل قبلة مسرحية تحكي عن أمسياتنا، بالكاد غطت مساحيق وجهها رجفات وجنتيها المنفعلة ،هذا بالنسبة لـ"إيرنا" يعني اقتراب عواصف عاتية، وتلك الابتسامات التي ترسلها إلى مقصورتي تتحدث عن ترقب لساعات النشوة. كانت "جوليت" تمثل من أجل اللورد "أماندل"،فقط من أجله هو! الملازم أول ذو القلب الصناعي .

وما الفائدة من هذا؟!

لماذا اهتزت مشاعري وسرى في وجداني سخط وثورة؟

إن نجاح "إيرنا" لم يعد يسبب لي الشعور بالتفاخر كما الحال من قبل ، آه!

أتجول في الاستراحة في البهو وأتزود في البوفيه بجرعات من دموع آلام "ماجدولينا" العذبة ، إنه خمر طيب! .. انضم إليّ اللواء "هانز" ، هو رجل سمين ، تفوح منه رائحة العطر،رأسه أصلع كالبدر المضيء، كان ثملا ، تفوح منه رائحة الكحول مختلطة برائحة المسك،يرمق بعينيه الواسعتين المضطربتين صدور الجميلات العارية، هكذا كان حال الجميع .. حيوانات! .. كان يدمدم بغضب وكأنه عاشق مرفوض:

- تسعة وتسعون في المئة من فتيات "سالزبرج" مصابات بمرض السفليس أو بأي مرض خبيث آخر، ألا تعتقد ذلك يا "سيبورن"؟

- أحقا ؟!

- أحقا ؟! هأ هأ هأ ،،، ساذج يا "سيبورن"! جميعهن مصابات، جميعهن ، بلا استثناء ! ، بداية من كبيرة الكهنة في توسكانيا وحتى أصغر عاهرة في القلعة ! جميع أفراد سلاح المشاة والرماة والفرسان وحراس القيصر ضاجعوهن!،وأنت مازلت تؤمن ببكارة فتيات "سالزبرج" ! هأ هأ هأ

.. ضحك وعلت قهقهته حتى برزت عروقه على رقبته القصيرة، أما أنا فكان يجب أن أتمالك نفسي حتى لا ألقي بزجاجة الخمر على جمجمته الغارقة في العرق .

- أترى هذه الفتاة ذات الشعر الأسود وعلى كتفها وشاح أحمر ، تراها في حفلات الضباط ترقص مع علية القوم وفي الليل يتسلل إلى غرفة نومها صغار الضباط، فهى تفضل اللحم الطري ، الصغير ، الساحق، أو انظر جيدا إلى البارونة الصغيرة من "أيجشتاين" ، امرأة كالوردة ، صغيرة ، فاتنة ، زوجها أبله ، عاجز جنسيا منذ الصغر، كل أسبوع تضاجع رجلا مختلفا ، آخرهم كان الملازم "هيلر" ، بعدها بأربعة أيام اضطر للذهاب إلى الطبيب مصابا بالسيلان !

شرب كأس الكحول البولندي ثم مسح بالمنديل شاربه الأصفر العالق على فمه والمغطى بزبد لعابه :

- تلك المرأة هناك أيضا ، زوجها أحد كبار رجال القصر ، علاقتهم بريئة ملائكية، تتردد كل مساء تقريبا على فندق "هابسبورج" وتستأجر فيه غرفة ، وما أن تقع عيناها على شخص جذاب في صالة الفندق حتى ترمش له بعينيها ، مما يعني أنك يجب أن تلحق بها، من جهة

أخرى هي تتواجد في أرقى المجتمعات ، زوجها مستشار القصر!، وهذه السيدة التي تقف هناك ،،، يا الهي ! هذه يمكنك أن تضاجعها في أي وقت تشاء، يقال أنها تشترط أن يكون الإنسان عنيفا !

منذ وقت قريب أيضا استمعت بلا مبالاة إلى كلامه الداعر الشاذ ، لكنه اليوم ثقيل على قلبي لدرجة أنني أريد أن أضربه بقبضة يدي في وجهه السمين المشبع بالكحول .. لماذا أنا منزعج هكذا؟! أضع باستمرار يدي على مقبض الخنجر .. شخص قذر! ، قذر! ،،، لكن لا أستطيع أن أمنع نفسي من فضول شرير ، سبب كريه يدفعني دائما إلى سؤاله واستقصاء التفاصيل وسماع الأسماء .

- وماذا عن هذه ؟!
- وهذه ؟!
- وهذه أيضا ؟!
- أف! حقا؟!
- أتعتقد أيضا الكونتيسة "ميلانيا"؟ هناك تقف تحت المرآة .
- هأ هأ هأ ،،
- وماذا عن السيدة "هولين"؟
- إنها عار على أتفه عاهرة في "سالزبرج" .
- و ،،، و ،،، "مينا رايدنبرج" ؟
- يقال أنك تعرفها؟!.. أتقصد تلك المرأة ، صاحبة العيون الكبيرة كالغزلان؟ يا عزيزي ، لا تختلف كثيرا عن الأخريات !

صحت فيه في ثورة غضب عمياء:

- سيد "هانز"! هل أنت سكران؟
- لكن ... لكن ،،،
- سافل حقير !

.. هكذا أخذت ألعنه ، وكدت أستل خنجري ولولا خوفي من أن يهجم علي أصدقائي من المعسكر لقتلته.

في برقية استدعوا كتيبة مشاه لتنضم إلى المعسكر الذي يواجه قتالا عنيفا في منطقة "ترانتين" حتى تعوض الخسائر الكبيرة، وسوف تغادر هذه الكتيبة غدا، اليوم جرت طقوس دينية ميدانية في أرض فضاء أمام الكاتدرائية، جاء سكان المدينة لدعمهم وامتلأت الشوارع منذ الصباح بالناس، وجوه باكية حزينة، فالجنود يذهبون إلى موت أكيد، فكثير منهم بالتأكيد لن يعود حيّا، فكرة رهيبة بأن خمسة وعشرون في المائة من هؤلاء الشباب الأقوياء النابضون بالحياة سيموتون في أرض المعركة طبقا للإحصاءات التقريبية ولا توجد قوة على وجه الأرض تحول بينهم وبين الموت، واحد من كل أربعة سيلقى حتفه ، نعم ، واحد من كل أربعة يذهب سيلقى حتفه بلا عودة! ، لا شيء يوقفه، هكذا ينص قانون الحرب القاسي والشواهد المستمدة من الواقع المؤلم، والأسوأ أن مشهد هؤلاء الجنود الأقوياء المفعمون بالعافية يختلط بصورة الجثث الملقاة البالية !

لم يكن يبتسم سوى الفتيات اللآتي يسعدن بالإثارة والمغامرة !

طلب قائد السريّة الأولى المقدم "هولزل" أجازة حتى لا يقود سريتّه ، وهكذا كُلفت بقيادة السريّة أثناء أداء المراسم .. خطونا على أصوات الموسيقى النحاسية بكامل زينا العسكري في مسيرة

تحيطها الناس في صمت ، والأرض تهتز تحت وقع خطوات الجنود الثقيلة المنتظمة ، وقع أقدامهم كأنه طرقات ثقيلة على غطاء تابوت ، ولّدت شعورا باليأس، آه من ويلات الحرب!

كانت الشمس تطل مشرقة سعيدة وكأنها لا ترى هذا المشهد الحزين تحت قرصها المشرق.

في الطريق مررنا ببيت "مينا" ، تماما بمحاذاة بيتها، وعندما اقتربت بسريتي من البيت بدأت الموسيقى تعزف لحنا كئيبا حزينا في هذه المسيرة ، لحن يشبه لحن مسيرة جنائزية وليست حربية !

وقفت "مينا" في الشرفة ، تحمل في يدها منديل أبيض تحركه في الهواء، الآن ، الآن فقط رأتني، سقط المنديل من يدها وشحب وجهها .. ارتعشت وهى تراني في هذا الزخم الكبير؟ .. ألقيت عليها التحية ، بكل الود وبابتسامة خفيفة، اعتقدت بكل ارتياح أنها تمسك بدرابزين الشرفة .

اعتقدت "مينا" أني ذاهب إلى أرض المعركة،وبإشارة مني جعلتها تغير استنتاجها هذا .

ألم أحذرك ، يا عزيزتي من "بيتشورين" ، من هذا الرجل القاسي الجبار؟!

إنك يا عزيزتي تشبهين فراشة ليلية تلقي بنفسها في النار بغير هدي .

ستحترقين؟!

قمت برحلة قصيرة إلى "هيلبورن"، مشهد المنتزه الإنجليزي المزخرف يصيبني بالملل، لكن المنظر من "موناتشلوسل" رائع، وقفت لمدة ساعة كاملة بلا حراك على صخرة عالية استمتع بالمنظر الجميل، هذه المدينة الشهيرة تبدو وكأنها من حكايات عصر الفرسان

حيث سيظهر هؤلاء الفرسان بين لحظة وأخرى من بين صفوف الأشجار.

كان المقعد عند السياج مشغولا، تجلس هناك "مينا" وتضع كتابا مفتوحا على فخديها وتنظر بلا هدف، بدت حزينة ، غارقة في أفكارها : (أعرف ، أعرف ،، في قلبك المضطرب هذا تموج مئات الأفكار والتصورات والصور الباهتة الدفينة)

وقفت عندها وقلت:

- أتسمحين لي؟

خاطبتها بدون تكليف مرة أخرى وبعفوية واضحة، وأنا الذي كنت منذ وقت قريب أرفض أي إشارات تقارب بيننا، ألقيت التحية بهدوء وجلست بجوارها .

- "سيبورن" ؟!

قالتها بعفوية وهى مندهشة ، وتوردت وجنتاها ، لا لم أخطأ ، لقد كانت تفكر فيّ ، وهى الآن مرتبكة وبعد قليل ستظهر عليها سعادة غامرة كمن يترقب شيئا جميلا ، لكني عندي قلب صناعي !

قلت مؤكدا:

- نعم ، أنا "سيبورن"، "ماكسميليان سيبورن" الشهير باسم "بيتشورين".

لم تستفيق بعد من المفاجأة الكبرى وأخذت تعبث بعصبية في الكتاب، اختفى احمرار وجهها بالتدريج ليفسح المكان للون أرستقراطي شاحب وفاتن، لم تتوقف فتحات أنفها عن الخفقان ، هذه الفتحات الفاتنة الوردية ، علامة الانتعاش وسمة الطبقة التي تنتمي إليها ، وثدياها يموجان تحت تأثير انفعالاتها الداخلية، اسمع تحتنا

في الأسفل جلبة سيف تصحبه ضحكات قصيرة صادرة من فتاة شابة، ثم صمت غامض ومشهد الخضرة في منتزه القيصر يبعث على النعاس، "مينا" تحمل في إصبعها خاتما ذهبيا لامعا، في هذا الإصبع الذي كنت أقبله يوما ما، لماذا يلمع هكذا بوقاحة؟!

قطعت الصمت وقلت لها وأنا أحاول أن يكون صوتي حزينا ومكتئبا:

- نعم ، يا لها من مفاجأة ! إن هذا المكان الذي التقينا فيه الآن هو نفسه المكان الذي جمعنا منذ عامين حينما تعرفت عليها وهو نفس المكان الذي التقينا فيه آخر مرة العام الماضي .

لحظة صمت ثم كررت بهدوء:

- منذ عامين ، تماما قبل عامين، في نفس الوقت تقريبا ، حيث أشرقت الشمس وعمّ الهدوء وهناك في الأسفل كانت جلبة سيف وضحكات قصيرة من فتاة شابة، تماما كما كان منذ لحظة ، غريبة ؟!!

صمت آخر ونهداها يتحركان بصعوبة وأسمع دقات قلب مضطرب، بالطبع ليست دقات قلبي، فالكل يعرف أن قلبي صناعي، بل قلب "مينا" .

قالت ردا على ملاحظتي حول الصدفة:

- أتعتقد فعلا أنها مصادفة؟! .. أنا لا أؤمن بصدف كهذه.

ثم التفتت نحوي فجأة وقالت:

- أنت يا "سيبورن" لا تفهم أننا لابد أن نلتقي في هذا المكان بالتحديد، فهناك أماكن تجذب الإنسان بقوة لا يستطيع مقاومتها في كل لحظة وتحت أي ظروف، في هذه الأماكن يبقى دائما شيء منا ،

شيء خاص ، صادر من أعماق أنفسنا ومكامن قلوبنا، هذه الأماكن تبدوا لنا حية، كل جزء فيها يتكلم، يهمس ، يتذكر ويذكر.

نطقت "مينا" ببعض الكلمات الحقيقية، لكن ما فائدة هذا وقد استبدل أطباء مهرة قلبي الجريح المدمر وزرعوا لي بدلا منه قلبا صناعيا؟! .. هذه الأماكن بالنسبة لي ميّتة ، لا تقول لي شيئا ولا تهمس بشيء ولا تذكرني بشيء ولا تذكر أي شيء .. استكملت "مينا" حديثها باهتمام:

- ثم ألا تعرف أننا كان يجب أن نلتقي من أجل شيء آخر؟! .. شيء مختلف! ، كان لابد أن نلتقي، لابد أن يكون ما بيننا طاهرا وواضحا، لا يجب أن يكون بيننا ضباب ولا شكوك، لا يجب أتفهم؟!
- أنا لا أفهم، هل كل شيء ليس واضح وطاهر بالفعل؟!،ما هو الضباب الذي بيننا؟!.. أنت لديك خطيبا وذكريات، أماكن حية وبقايا روح وأنا عندي قلب صناعي، هكذا نكون متعادلين، أين المشكلة؟!

كان صوتي يحمل أنانية وبرود.

- حسنا "سيبورن" ، أنت لا تريد أن تفهمني؟
- هم أيضا لم يفهموني! .
- "ماكس" ! "ماكس"! (فجأة أخذت تناديني باسمي القديم لأول مرّة) أنت لا تعرف ما ورائي ، لا تعرف كل ما يحدث لي .

بل أعرف جيدا ، أعرف جيدا كل ما يحدث لها، ويمكن أن أقول بسعادة دفينة أنها تجاهد حتى لا أرى دموعها التي قد تزرفها وتنساب من على وجنتيها كينبوع ماء، لكن لا! بالله عليك لا تبكي! فصورة المرأة وهى تبكي مخيفة ومقززة، آه لو عرفت المرأة

كيف أن دموعها تشوه وجهها لما بكت أمام الرجل على الإطلاق: شفتان معوجتان وعينان منتفختان ومؤخرة أنف حمراء، آه لو لم تكن المرأة تعرف الشعور بالجمال ، لظلت شفتاها معوجتان أمام الرجل إلى الأبد ولظلت تصنع جحيما على الأرض مدي الحياة، نعم ، إنه جنس فظيع .. فظيع !!

- "ماكس" ! "ماكس" ! إنه عام !

ألم أقل؟ ها هى قد لوت فمها ، فمها الصغير الجميل ، شارفت بطولة "مينا" على النهاية، هاهي دموعها الغزيرة تتساقط من عينيها اللتان أصابتهما العتمة.

"مينا" تبكي، بهدوء ولطف وانسياب، كانت مخاوفي الكبيرة - أو بالأحرى سخريتي - من رؤية "مينا" وشفتاها المعوجتان ومؤخرة أنفها الحمراء ، هذه الصورة المقززة المشوهة في غير محلها، فلم تكن صورة "مينا" مخيفة، ظل وجهها كما هو باستثناء عيون الماء الفضية العذبة التي تتدفق من عينها وتختفي في ثنايا معطفها.. إنها كتمثال يبكي، إنها دموع "ماجدولينا" ، الآن فقط عرفت لماذا هي دموع عذبة!

وبصوت هادئ أخذت تحكي قصتها التافهة ، قصة آلاف ومئات آلاف من الأرواح الصغيرة الضعيفة التي نسيت في لحظة ضعف أنه سيأتي وقت ، أكيد سيأتي وقت يعلو فيه نداء حار، لن تنال هذه النفوس التعيسة من الحياة أيّة سعادة أو بهجة، سيتحول سر الحب الكبير إلي مصدر رعب لهم وسيموتون بحزنهم قبل أن يتذوقوا وبكل كيانهم كأس السعادة الكبرى، آه ! يا له من انتقام قاس وعنيف!، الحياة لا تعطي سوى للمنتصر ، أما الضعيف فتسحقه ، تدمره ، تقضي عليه، يا عزيزتي ! عما قريب ستسقطين تحت وطأتها

الرهيبة .. أما أنا فلن أتألم من أجلك ، فأنت تعرفين أني أحمل في روحي سر "بيتشورين" الغامض !

بعد أن تركنا طريق أشجار البلوط التي تقف منذ ألف عام، ظللت المنتزه سحابة خفيفة واحترقت صخور مدينة "أونترسبرج" بنيران الحب، تصدر من المقرات الصيفية ضحكات مرحة ، ومن بعيد يغني أحدهم لحن شجي على أنغام القيثارة ويسير في الطرقات أزواج من الشباب والشابات يميل أحدهما على الآخر، في كل ركن من أركان المنتزه يعلو صوت العاشقين ، كل شيء وكل مكان يفوح برائحة العاشقين!!

أنا الوحيد الذي لديه قلب صناعي بدلا من قلبه الطبيعي! ، أما "مينا رايدنبرج" فتسير كاسفة الوجه،تواجه حربا صعبة ضارية ولن تخرج منها منتصرة، فهي وقعت في براثنها، وهكذا أصبح مقدرا لي أن تزداد فرصتي بين دقيقة وأخرى، لكن يا عزيزتي ! لقد حذرتك مرة أنني لن أتهاون معك، إن الناس ذوي القلوب الصناعية لا يعرفون الرحمة !

اليوم استمتعت بدموعك وغدا سوف أتلذذ من قبلاتك وفي النهاية سوف أضحك وأضحك وأضحك فالضحك هو الشيء الوحيد الممكن لرجل بقلب صناعي!

إن قضيتي مع الرائد "هانز" تنظرها محكمة القيم، أنا لم أكن أعتبر الرائد "هانز" رجلا غبيا إلى هذه الدرجة! .. نما إلى علمي أن الحكم في القضية سيصدر قريبا وأن عقوبتي ستكون بنقلي إلى أقرب كتيبة مشاه، لكن الأسوأ هو ما سيحدث للرائد العجوز، في الغالب سيسقط في ترقيات نوفمبر ، لقد كان ينتظر على أحر من الجمر أن تتم ترقيته إلى مقدم ، يؤسفني أنه كان غبيا إلى هذه الدرجة !

جمعتني الصدفة أمس بخطيب "مينا" ، المحامي الشاب "شوردر"، وهذا ما حدث .

بعد ذلك اليوم اجتمعت لجنة التحكيم العليا وانتدبوني من قيادة التعبئة عضوا فيها لكي أساعد قائد السرية "هوبر" .. تم استعراض الضباط في معسكرات "فرانتيشك يوسف" في قاعة القراءة الخاصة بالضباط وذلك برئاسة اللواء العجوز "مندل" المعروف عنه الصرامة، بالتحديد كان شديد الصرامة مع ضباط الاحتياط ، كل ضابط منهم كان يعلم علم اليقين أن كل منهم سينضم -ما لم يكن بالفعل مريضا إلى درجة الموت - إلى إحدى كتائب المشاة التي تذهب واحدة وراء الأخرى إلى الميدان .

كانت العملية قصيرة جدا ، لم يسمح لطبيب الأركان ، ذلك الرجل الطيب أن يتحدث، كان سؤاله الوحيد لهؤلاء المساكين هو:

- هل تستطيع المشي أم لا؟!

بالطبع كان الجميع يمشي على قدميه مادامتا لم تنكسرا ، وبذلك يصبح الأمر مقضيّا !

- يجب أن تعلم بأنه تم تسجيلك كضابط يتمتع بكامل قدراته .

في الجلسة المسائية ثم إعلان أسماء خمس وعشرون ضابطا من المعسكر غالبيتهم من ضباط الاحتياط حيث كان من الصعب ترك الضباط العاملين بدون مهام عسكرية، فكان كل من يمتلك يدين قادرتين على العمل يجد بسهولة شيئا يفعله نتيجة لنقص كبير في القوى العاملة .

بدأت أعمال اللجنة منذ التاسعة صباحا ، وفي الساعة الواحدة بعد الظهر كان مازال هناك عشرة ضباط ينتظرون العرض، فقد استغرق ملء الاستمارات الطويلة وقتا طويلا، طلب اللواء من قائد

السرية "هوبر" أن ينوب عنه لوقت قصير وانصرف إلى ميز الضباط لتناول شيئا من الطعام .

أشار "هوبر" على جندي يقف عند الباب:

- نادي على الضابط التالي!

سعال وكحة خلف الباب ثم دخل إلى القاعة خطيب "مينا رايدنبرج"، كان وجهه شاحبا قليلا لكنه يسير بخطي ثابتة نحو قائد السرية ثم وقف أمامه ألقى التحية بهدوء.

- ما اسمك ؟
- ملازم أول احتياط "ويليام شوردر" .
- آخر فرقة تدريب ؟
- الأول من نوفمبر العام الماضي .

كان قائد السرية عصبيا من جلوسه كل هذا الوقت ومن الجوع ، أخذ يعبث في ذقنه وفي المستندات .

- هل شاركت في ميدان المعركة؟
- لا

كانت إجابة المحامي مضطربة - على الأقل هذا ما شعرت به أنا - .. عقد قائد السرية حاجبيه أكثر وأكثر، رغم أنه هو شخصيا لم يشارك في ميدان المعركة إلا أنه كان يغضب بشراسة على كل من يحاول التهرب من الخدمة على الجبهة .

- أهكذا؟ آها ، هنا مكتوب،حسنا .. ملازم أول احتياط "ويليام شرودر" ، فرقة تدريب ١ سبتمبر ١٩١٤ ، ١ أبريل ١٩١٥ ، ١ أكتوبر ١٩١٦ ، يا رجل! إنك لم تشارك في الحرب ولو مرة واحدة !
- أنا مصاب بالفتاء .

هزّ قائد السرية يده باستهانة ثم ابتسم بغضب:

- نحن نعرف هذا الفتاء، نصف الضباط يعاني من الفتاء.. السيد طبيب الأركان ، من فضلك تقرير مفصل!

تقدم طبيب الأركان من "شرودر" وربت على كتفه بوداعة وقال:

- اخلع ملابسك يا سيد "شرودر" المحامي .

هنا علّق قائد السرية بحنق:

- هنا لا يوجد محامون،عندنا هنا فقط رئيس ومرؤوس، وفي حالة كهذه هذا السيد الواقف هو الملازم أول احتياط "ويليام شرودر"، ولا أعترف هنا بالمحامي "شرودر"!

في الواقع يجب أن أضيف أن غضب قائد السرية الجامح لم يؤثر على السيد "شرودر"، وقف بارد الأعصاب ولم يتأثر بالإهانة الأخيرة التى وجهها له، ثم خلع ملابسه، شاب جيد ، هذا المحامي "شرودر"، قوي ، مفتول العضلات ، متين البنية ، جبار، أعتقد أنني قد أغار منه لولا هذا القلب الصناعي ومرض الفتاء الفظيع هذا، هو بالفعل مصاب بالفتاء ، مسكين خطيب "مينا" هذا بمثل هذا المرض لا يمكن أن يخدم في الصفوف الخلفية ، فما بالك بأرض المعركة حيث المجهود البدني المتواصل، سيكون عبئا ماليا لا أكثر،وهنا تملكتني شماتة كبيرة مفاجئة ، هذا هو خطيب "مينا" المسكين ، الجدير بالرثاء ، رغم أنه رجل لكنه ليس رجل في المكان المناسب.

التفت طبيب الأركان إلى قائد السرية وقال:

- غير لائق للخدمة .

ضرب قائد السرية بالملف على الطاولة بعنف وقال:

- كيف هذا؟! هذا الرجل المفتول العضلات غير لائق للخدمة ؟! مستحيل؟!
- عنده فتاء شديد .
- يا الهي ، فتاء!

تخلص الرجل العجوز سريعا من ذهوله – فاللواء غائب – وصار مفعما بالنشاط ثم قال:

- "السيد قائد السرية ، نعلنكم أن الملازم أول احتياط "ويليام شرودر" غير لائق للخدمة، ولا نوصي به للخدمة حتى الدرجة (ج)،" ثم رفع صوته:
- على مسؤوليتي!

قال الطبيب بلهجة تقريرية:

- أنا طبيب الأركان أتحمل المسؤولية .

وبهذا انتهى العرض ونجا المحامي "شرودر" .. لمحني وهو يرتدي ملابسه وأنا أجلس خلف الطاولة فتورد وجهه حتى الإحمرار، يعرف أنني أحد معارف "مينا"، أزعجه أنني رأيته عاريا بمرضه العضوي الخطير هذا .

في الصباح تملكني شعور بشيء طيب سيحدث لا يمكن وصفه ، ولم يخطئ حدسي حتى الآن، بل كنت مقتنعا بأنني سأتنبأ بساعة موتي مسبقا،وسيكون موتا عنيفا كما رأيته في أحد أحلامي أكثر من مرة (هذا منطقيا ،ألسنا في حرب؟!)، آه .. إنه ليس صعبا ، بل بالأحرى عذبا، عندما أفكر في الموت ولا أراه شبحا مخيفا بل رجلا عزيزا غاليا له يد رقيقة حانية،

طالما أتكلم عن التنبؤات يجدر بي أن أتذكر أحد طلبة الكلية العسكرية وهو "ماتي بونجاور" الذي لقى حتفه في الحملة

العسكرية التي وقعت في مايو ١٩١٦ بين خط الدفاع الأول والثاني عند نقطة "دورار" المجاورة لمدينة "أوستري فيورانتيتي" .

كنا نقيم قبل بداية الحملة في ثكنة عسكرية مغطاة بخشب الصنوبر.. أقمنا فيها نحن الضباط مع طلبة الكلية الحربية التابعين للسرية وجنود الخدمة .. ذهبت سريتان إلى المخابئ وبقيت السريتان التابعتان لنا مستلقيتان عند جبل داكن اللون وبه غابات من أشجار التنوب وعلى بعد نصف ساعة من خط المواجهة، كانت الثلوج كثيفة ، بلغ ارتفاعها ثلاثة أو أربعة أمتار، كان الجميع يأكل ويشرب ويستجم ، كما هو الحال دائما قبل الهجوم ، يستعدون لعمل بطولي دموي !

عمّ الظلام الثكنة العسكرية وساد الهدوء .. استلقى كل منا على مخلته غارقا في أفكاره السوداء، كنا نفكر في اليوم التالي، اليوم الذي ربما يكون للكثير منا الأخير في حياته! .. نعم ، طبقا لنظرية الاحتمالات كان جليّا أن البعض سيلقى حتفه ، لكننا لم نعرف من هو! .. ساد هدوء كبير خارج الثكنة أيضا ، ولم يصدر من ثكنات الجنود أية صوت، كانوا هم الآخرون يستعدون للموت، وفجأة في هذا الصمت الرهيب جاء صوت الطالب "بونجاور":

- أخرج لي من الحقيبة ورقتان و احضر لي قلم .

تعجبنا ، ماذا سيفعل هذا الطالب بورقتين وقلم، لم تكن العادة أن نكتب قبل الهجوم أو المعارك بصفة عامة خطابات عاطفية، كنا نعتبر هذا إزعاج لا داعي له لأهلنا الذين يخافون في كل لحظة على حياتنا، كانت الفرصة أمام الجميع ليودع فيها أهله قبل رحيله إلى الجبهة.

ضحك الطالب وقال:

- لا ، لا ، هذا وداع الحياة!

- وماذا ستفعل؟

- سأكتب وصية.

ضحكنا منه، كان من المضحك أن نكتب وصية قبل الهجوم.

قال طالب بهدوء:

- أتضحكون؟! عندي سبب قاهر لأكتب وصيتي.

أجبناه جميعا بصورة منطقية:

- كان يجب أن تفعل هذا من قبل.

- أتعتقدون ذلك؟ .. كيف أشرح لكم الأمر، ..أتعرفون؟! حتى الآن لم يكن لدي دافع لكتابة وصيتي ، فلم أكن معرضا للموت في الحرب.

اعترضنا جميعا:

- آها ! كيف كنت ستعرف؟! لا أحد يتنبأ بما سيحدث.

- نعم ، في الواقع وبصفة عامة هذا صحيح، فمن يعرف ما سيحدث غدا؟! أما أنا فلم أكن أفكر حتى هذا الوقت في الموت، ببساطة لم أشعر بشئ كهذا ، لم تخطر على بالي فكرة كهذه، كنت في أصعب اللحظات واثقا .. نعم ، من الصعب تفسير الأمر، باختصار كنت أعرف أنه لن يصيبني شيئ، هكذا ، لم أستطع يوما تفسير نظريتي هذه لكنها كانت نظرية قوية ، لم تخذلني مطلقا، والدليل على ذلك أنني مازلت بينكم، كانت القنابل اليدوية تتساقط من حولي ، والألغام الأرضية تنفجر والناس يموتون ، لكن المكان الذي أقف فيه لم يصب بأذى، هذه هى إرادة القدر، أتضحكون؟! الحيوان دائما يشعر بقرب موته فلماذا لا يشعر به الإنسان؟!

امتد الحوار حول إمكانية أن الإنسان يتنبأ بمصيره، وبالطبع لم ينتهو إلى شيء، وهدأت الأصوات.

قال الطالب "بونجاور" من جديد :

- اليوم بعد الظهيرة وحينما استلقينا جميعا سيطرت علىّ فكرة أكيد مرعبة وهي أنني سألقى حتفي في هجوم الغد.
- هراء !

هكذا حاولنا تهدئته لكن بعزيمة أقل.

- ربما يكون هراء بالنسبة لكم، أما أنا فلا أستطيع التخلص من هذه الفكرة، أحاول عبثا! وللأسف من الصعب الاقتناع بمثل هذه التنبؤات، أنتم ، يا من تجلسون من حولي ، أنتم من سيقرر إن كان هذا صحيحا ، لكن على حسابي.

ثم صمت ، ولم نجد حجة نرد بها عليه.

- على كل حال كتابة الوصية لن تضر في شيئ فالإنسان يجب أن يستعد لكل شيئ.

جلس على الطاولة وأخذ يكتب وصيته وسط صمت الجميع، بعد أن فرغ ، طلب من اثنين منا أن يوقعا كشهود فوقعا، ثم أرسل في طلب ضابط الصف وسلمه الوصية.

- إن حدث لي شيء غدا ، أرسلوا الوصية إلى أخي "مارتن بونجاور" ، تاجر البقالة في "فرانكن ماركت" وأخبروا خطيبتي "إيلزا برونيك" ابنة تاجر الأخشاب في "فوكلابروك"، وهذا هو عنوانهم.

قضينا بقية اليوم نلعب الورق، كان الطالب أسعد واحد فينا جميعا، كان يفوز في اللعب دائما وبوقاحة لم يترك لنا ولا مليما، لكنه لم يكن يستمتع بهذا.

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي وقفنا جميعا على الجبهة الإيطالية الأولى، سقط منا الكثير من الجنود الأكفاء، توقف القتال للحظة وبينما كنا نعّد لهجوم جديد على الخط الثاني الذي كان محصنّا بصورة أفضل .. رأيت الطالب يجلس على صخرة ورأسه مكشوف ، وكأنه يأخذ حمام شمس ثم ينظر إليّ ويبتسم.

صحت فيه قائلا:

- اسمع يا "بونجاور" ، نبوءتك تلك خذلتك وجعلتك أضحوكة.
- مهلا يا "سيبورن" ، الآن ستأتي اللحظة الحقيقية!

بدأ الهجوم من جديد، اختفى الطالب عن نظري، انهمك كل في عمله .. كان الهجوم في هذه المرة صعبا، لم نسيطر على الموقع إلا في الصباح المبكر وكلفنا هذا عددا لا يحصى من الضحايا، ربع الفوج سقط عند الأسلاك الشائكة، وبينما كنا نستريح ونستعد للخطوة التالية ، أحصينا الخسائر الكبيرة.. سقط هذا وهذا ، كان عددهم كبيرًا.. كبيرًا جدا !

سألت رئيس العملية الرقيب أول:

- ماذا عن الطالب "بونجاور"؟
- مات !! أصابه مدفع رشاش.

كان على حق بالفعل ، وبدأنا نقتنع بصحة التنبؤات، وعلى حسابه،تماما كما توقع بجزع في اليوم السابق للهجوم.

اللعنة ! لقد تحدت كثيرا عن الموضوع ..نعم ، في صباح اليوم شعرت بشيء سعيد سيحدث، وبالتحديد سأرى "مينا رايدنبرج"، لكني لا أعرف لماذا أقول أنه سيكون شيء سعيد؟!

أخ ! نعم،إن الاستمتاع بالنصر هو قمة المتعة، يحيا "بيتشورين"!!

سافرت "إيرنا" إلى "ويلز" لزيارة والديها، لكن الغرفة مازالت معبأة برائحة جسدها الممتلئ الغض، يا لها من رائحة! لا أعرف رائحة أرق وأجمل وأنعم من عبق جسد امرأة شابة ورائحة الطبيعة التي تفوح من شعرها الكستنائي، شعر "مينا" أيضا كستنائي تماما كشعر "إيرنا" ، لكن شعر "مينا" له بريق كبريق الذهب المنسال، آه يا شعر "مينا"!

أشعر بخفة ومزاج معتدل أفتقده منذ فترة، فتحت جميع النوافذ على مصرعيها حتى تمتلئ الغرفة بالهواء المنعش ، نسيم الربيع، يا لها من نشوة! التقطت القيثارة المزينة الأشرطة وأخذت أغني:

لا تغضب حبيبي
لأني لطيفة مع أحد غيرك
إنه بسبب هذا الخاتم
اشترته لي أمي في العيد
وماذا قال لها حبيبها هذا؟
هكذا أجابها:
كفاني حديثك هذا
سآخذ أجازة وأودعك
أيتها الفتاة الجميلة
ولن أعود
الفتيات الجميلات مثلك

وأجمل منك في كل مكان
وسأظل شابا سعيد

أتعرفي يا "مينا" لمن أدين بالفضل على كل هذه الأوشحة؟! .. لك أنت ! عندي الكثير منها ، الحمراء والوردية والبيضاء والزرقاء والخضراء والمزينة بالفضة والذهب ، على كل وشاح بعض الكلمات الجميلة :

نعم! البيضاء.. من سيدة الثلج من "بوسترتال" ، امرأة باردة ، تبدو من الخارج كالمرمر ، باردة الملمس ، عيناها كحبات مياه نهر "الراين" الزرقاء الخضراء، ألم تنصهر في أحضاني؟! .. نعم ، وبشدة!!

وشاح آخر عليه عبارة:

حصننا القديم، نعم ، حصننا القديم فوق سهل "نيوبرج"، في السهل يوجد جدول ماء جبلي رغد ينبح كقطيع كلاب ضالة، فمها أرجواني كهذا الوشاح وساخن كاللهب،لكن شعاعها الباكي لم يحرقني.. ثم انظر إلى هذا الوشاح المزين بالذهب والفضة: لن أنسى أبدا "ماريا"، وكيف أنسى عينيها الواسعتين الطيبتين وجولاتنا في كروم "كالترن" قبل المغيب في شهر أبريل .. وكيف أنسى حانتنا الخشبية عند البحيرة ، حيث جلست معها ومع الأصدقاء نحتسي النبيذ ونسمع الموسيقى؟ كم كانت أيام رائعة! آه يا "ماريا" ، كانت فتاة رائعة ، كان كل الفوج يحسدني عليها، انظر هذا الوشاح الأزرق! إنه بدون شعار، لقد كانت فتاة بريئة ، كان حبا عذريا ، خالي من الأهواء، كان حبا مليئا بالنظرات الطويلة والآهات الدفينة، اختفى مع ثلج مارس ولم يبقي منه سوى هذا الوشاح الأزرق.

يا عزيزتي! سيأتي يوم بالتأكيد (أنا واثق أن الانتظار لن يطول) حيث أربطك بحلق القيثارة وأضعك في ركن الذكريات.

كم هو جميل أن تكون وحدك ، مع نفسك ، بدون رقابة ومسؤوليات واستجواب في كل خطوة وكل كلمة، لأول مرة أنا سعيد لغياب "إيرنا" وأتمني أن تبقى هناك لأطول وقت ممكن.

أثناء وقت الغذاء ذهبت إلى منتزه "ميرابل" بين البشر، لا مكان يضارعه في جماله في العالم كله،فضلا عن عبير الربيع الذي يملأ المكان هناك ، كل شيء يزدهر، الموسيقى تعزف عند نافورات المياه في المنطقة التابعة لكتيبتنا، الأرصفة مغطاة برمال بيضاء ، تموج من فوقها أزياء متعددة الألوان ، وألبسة وسترات رسمية وقبعات وشمسيات، صوت أنغام كورال "تانهاوسر" يختلط بانسياب مع همهمة الجمهور الذي يتوافد .. يشبه المنتزه عند ممر المشاة المزدحم كسرب النمل الملون ، ومن الجميل أن تسند جسمك على سور نافورة المياه الرخامي وتتابع هذا العالم الرائع.

أرى الكثير من معارفي ، أُلقي التحية وأنظر باهتمام إلى هذه الفوضى وإلى كمّ معارفي، مجهود بلا طائل .. "مينا" ليست هنا، ورغم ذلك ، إحساسي لا يكذب غالبا، وقفت كالعصا ، طأطأت أذني وتشممت رائحتها ، أنتظر قربها بكل وجداني، ولولا أن قلبي صناعي لكانت سمعت نبضاته!

لماذا كشرت السماء عن أنيابها؟! .. نعم ، لقد أظلم الجو، صحيح أن السماء زرقاء خالية من الغيوم والشمس مازالت تنشر ضوءها في كل مكان ، لكن السحب ملأت العالم، انطلقت الأبواق وكأنها تصدر من وراء حجاب وهدرت الآلات الموسيقية بغضب، نعم

، لم يعد الجو صافيا ومرحا كما كان منذ لحظة، أخذت أفكر في انتصاري القادم!

ماذا قالت "مينا" عندما التقينا آخر مرة على صخرة "هيلبورن" ؟

- "ماكس"! "ماكس"! أنت لا تعرف ماذا ورائي!

نعم هذا ما قالته وهى تحبس بكل قواها دموعها التي ترقرقت في عينيها التي كساها اللون الأحمر، لكن لماذا لم تسأليني يا عزيزتي إن كان هناك شيء ورائي؟! أترين يا عزيزتي هذه هى كل أكوام الآلام التي تغلبت عليها في صمت، يا لها من آلام رهيبة! إن الدم ليتجمد في عروقك يا عزيزتي لو رأيت جزءً صغير من آلامي، لكنك لم تسألي عن شيئ، لم ترين سوى تفاهتك الصغيرة البائسة ، لم تذكرين سوى آلامك التافهة ونسيت أن "جولجوتا" سارت في طرق شديدة الإنحدار، أيها الجنس المسكين ، التافه الأناني الضعيف! أيها الجنس الرهيب، اليوم فقط بدأت أتفهّم حقد "شتربند برج" الشديد!

انضم إليّ أصدقائي من المعسكر.. ملازم أول "زيلار" وملازم "ويلر" .. بدأنا ننظر إلى المتنزهين ونحن متكئين على مقابض السيوف، كان "ويلر" دونجوان من الدرجة الأولى ! .. يراقب السيدات وينقر بحذائه على الأرض ثم ينظر بإعجاب إلى صدور النساء المزيّنة بسخاء وتتلألأ عليها الحلى،وقف معنا يتطلع إلى عيون الحسناوات ، وبالتأكيد سيصيب ولو مرة بخبطات حذاؤه المجوهرات وعيون النساء، "ويلر" يدخن التبغ في غليون إنجليزي قصير ، لذلك فهو يضيّق عينيه بتكاسل مثل الضفدعة في الرمال، أما

أنا فمازلت أتجول بناظري بين الحاضرين، لكن العالم مازال غارقا في اللون الداكن!

علق الملازم "ويلر" وهو يتحدث من بين أسنانه بجدية وينفث الدخان:

- اليوم بالتأكيد سأشرب حتى الثمالة !

رد الملازم أول "زيلار" :

- أها! أنت كل يوم تقريبا على هذا الحال!
- لكن اليوم بالتحديد سوف أشرب كثيرا !
- أمر غريب!
- يجب أن تعرف أنني بعد يومين سأذهب إلى الجبهة في عربة الضباط، إلى "فال سوجانا".
- لكنك قد تعود بعد وقت قريب.
- أنا لن أعود من الحرب!

سألته بفضول:

- وكيف عرفت أنك لن ترجع؟!
- كيف عرفت ؟!.. من الصعب تفسير الأمر، لكن هذا ما حدث: وبينما أنا في نائم في السرير شعرت فجأة بالأسى الشديد .. من ماذا؟! الله أعلم.. لا أعرف فقط انفجرت في البكاء كالطفل الصغير، أتعرف؟! بكيت هكذا بغباء، والله يشهد على ما أقول ، سالت دموعي سيلا على وجهي، وما أن توقفت عن البكاء حتى انتابني شعور قوي بأنني لن أرجع من الجبهة، وعبثا أخذت أدفع هذا الشعور، شربت نصف زجاجة كونياك ولم تفيد، ولازمني

هذا الشعور، لذلك أقول لكما بأنني أريد اليوم بالتحديد أن أسكر !

تذكرت أنه في أحد أيام شهر مايو وقبل الهجوم على المواقع الإيطالية قال طالب الحربية "ماتي بوجاور" كلام مشابه ، بل قال نفس الكلمات تقريبا، نعم! ، وأيضا "ويلر" يمكن أن يكون محقا في شعوره ، غالبا هذا صحيح، انظر! إن "بيتشورين" توقع الموت في وجوه الخاسرين، ومن يعرف؟! ، ربما عما قريب سأضطر للذهاب مع كتيبة المشاة إلى الجبهة، وسأشعر بما تشعر به أنت الآن، اليوم لك وغدا عليك!

وما حدث هو أن أحد منا لم يستطع الإجابة على نبوءة الملازم "ويلر" الغامضة!

في هذه اللحظة سمعت صوتا رقيقا في أذني اليسرى واهتز السيف في يدي.. لماذا اضطربت؟! كيف أن الظلام القذر انزوى في الأركان البعيدة وأزدان العالم بالألوان البهيجة؟ .. من قريب جاء صوت ناعم ، عذب، وعندما استدرت رأيت "مينا رايدنبرج" برفقة فتاة صغيرة شعرها أسود اللون .. ألم أتحدث قبل قليل عن التنبؤات الجميلة؟!

رأتني هى الأخرى وبإشارة من عينيها فهمت أن علىّ أن أذهب ورائها..

لا ، أصدقائي لا يمانعون، حظا سعيدا! ، "ويلر" اذهب واسكر اليوم على الأخص!

كانت الفتاة السمراء جميلة، بعد حوار بسيط انصرفت بحجة زيارة ملحة للأهل، وبقيت وحدي مع "مينا".

سألتني وهى سعيدة إلى درجة غير طبيعية بل تكاد تطير من الفرحة:

- ما هو التغيير الذي تراه عليّ أيها الملازم أو التابع لجيش المملكة والقيصر "ماكسميليان سيبورن"؟

أخذت أتفحصها من أصابع قدميها حتى رأسها وقلت:

- فاتنة كالعادة!
- أرجوك ، بلا مجاملة.
- أقسم بالله!
- رجاء ، أدخل في الموضوع.

تفحصتها مرة أخرى بإمعان.. صحيح؟! هل تريد أن تسمع كلمات ثناء ومديح في هذه الحالة ؟!

- هذا الفستان الربيعي الأنيق الذي لم يكن لي الشرف برؤيته من قبل وخاصة في ....
- هراء!

احمرّت وجنتيها وكدت أركع عند قدميها لخجلها هذا.

- أم ربما الأقراط الجديدة على أذنيك الوردية؟!
- لم تحسن التخمين ، حاول مرة أخرى.
- ربما تسريحة شعرك الجميل المخبّأ تحت قبعتك الحريرية؟
- أيها الملازم!
- يجب أن أعترف بكل أسف أني لا أرى تغيرات أخرى مميزة.
- إذن تفضل وانظر أيها الملازم ، أمازالت لا ترى؟!

ووضعت يدها الصغيرة الأنيقة قرب عينيها، بالفعل تغيير غامض .. لقد اختفى خاتم الخطوبة!

سألتها بدهشة:

- أين هو؟

فأجابت بسعادة:

- سقط في جيب السيد خطيبي!

ثم استطردت بهدوء وتواضع:

- لم أستطع المواصلة.

تقدمت مني بثقة، وبعد لحظة قالت بصوت أكثر هدوءا تكاد تهمس:

- هل أنت راض عني؟!

لم أرد، لم أستطع الرد عليها، فلا إجابة عندي لسؤالها، والغريب في الأمر أنني للوهلة الأولى لم تكن سعادتي كبيرة من هذا الانتصار ، بل انتابني شعور بالحزن الشديد ، والكآبة ، شيء يدفعني للبكاء ، لولا ، في الواقع لولا أن في صدري قلب صناعي بدلا من قلبي، نعم ، إن خضوع "مينا" تخطي الحدود.

- "ماكس" ! أنا أكرهه!

لا ، لست ضعيفا، يجب أن أتمالك حتى لا ترى بسمة النصر على وجهي ، آه ! لولا أن قلبي صناعيا لكان هذا الانتصار فظيعا وقبيحا، أقبح من الهزيمة نفسها!!

غالبا ما تكون الأحلام ضبابية ، سريعة الزوال وعبثية، وغالبا ما تختفي من ذاكرتنا بمجرد أن نسترد وعينا، لكن في الغالب تراودني أحلام واضحة المعالم ، أحلام ذات حدث متصل وليس خيالي

على الإطلاق،لكن ما حلمت به بالأمس فاق حدود الخيال، لم يكن حلما جيدا بل غريبا وقبيحا ورهيبا لدرجة أنني مازلت أتذكر كل تفاصيله، من حسن الحظ أني لم أصل إلى درجة أن أفسر أحلامي.

راودني هذا الحلم:

رأيت أني أسير في طريق عبر غابة مظلمة من أشجار التنوب ، طريق جبلي يصعد ويصعد، على الأرض طبقة كثيفة من الطحالب غاص فيها جسمي حتى وصلت كاحلي، كان الهواء مفعما برائحة أوراق الأشجار المتعفنة ورائحة الفطر الغريب الكريهة، ساد في أعلى الغابة هدوء شديد ، وما أن وطأت قدمي أحد الأغصان الجافة حتى انطلق صوت وكأنه صوت طلقة من بندقية .. واصلت الصعود، ثم انحدر الطريق بشدة نحو أحد التلال ، مما جعلني أتشبث بالأغصان حتى لا أنزلق، نتيجة لهذا الجهد بدأ العرق ينسال على وجهي، لكني كنت مضطرا أن أواصل السير ، فقد كان عليَّ أن أصل لقمة التل ، من أجل شيء في غاية الأهمية، شيء يتوقف عليه صفاء نفسي وخلاصي، نعم ، هكذا كان الأمر، وعندما بلغت أرضا فسيحة ، أرى منها المشهد من تحتي ، وجدت أن قمة التل مازالت بعيدة جدا، بعيدة إلى درجة أن الغيوم الداكنة العالقة في السماء أصبحت تغطيني .. تملكني اليأس وصارت قدماي لا تقلاني ، مشيت متكأ على أحد الأغصان التي كنت أتشبث بها ، يدي تنزف دما من شوك الأشجار .. ثم حل الظلام، وصارت الغابة أكثر ظلمة .. جلست على صخرة مغطاة بالطحالب بعد أن كاد نفسي ينقطع، مازلت أشعر الآن بالإرهاق الشديد الذي أصابني هناك، أغلقت عيناي .. أترنح من الهدوء الغامض على جبل أشجار التنوب.. وفجأة سمعت حفيفا قادما من على قمم الأشجار، وجاء صوت هامس مكتوم من الأدغال

المظلمة وكأنه رياح باردة تجوب الغابة، ورغم أني كنت في أرض مستوية مكشوفة ،لم أرى أي أثرا للرياح.. فتحت عيني وإذا بي أرى أمامي رجلا يرتدي سترة عسكرية طويلة وغريبة وعلى رأسه قبعة روسية، يتطلع إليّ بلا حراك ، يداه معقودتان وكأنه ينظر إليّ باحتقار وتعال واضح .. سألته في دهشة:

- من أنت؟!

.. لم يرد .. كررت السؤال مرة أخرى وقد انتابني خوف شديد كدت بسببه أتلعثم :

- من أنت؟!

.. لزم الغريب الصمت،أخذت أدقق فيه النظر ، وفجأة تذكرت أنني رأيت هذا الشخص الطويل من قبل في مكان ما ، إنه رجل عريض المنكبين ، مفتول العضلات ، بالتأكيد رأيته من قبل!.. هذا الشخص أعرفه بالتأكيد ، هذا الوجه الجميل الشاحب ، هذا الفم الممتلئ الأحمر المغلق ، ملامح الإرهاق حول فمه هذه ، هذه الجبهة المجعدة البيضاء العالية .. لزم كلانا الصمت، ينظر كل منا إلى الآخر، أنا أتفحصه ، أما هو فظل ينظر إليّ بكبرياء .. في النهاية خرجت عن هذا الصمت المزعج فقلت وأنا أبحث في ذاكرتي عن اسم هذا الغريب:

- ألست أنت ، ألست أنت ، يا الهي! أنا أعرفك ، أعرفك جيدا من آخر مرة رأيتك فيها، قطع ترددي وتلعثمي بحدة قائلا:
- في القوقاز. .. همست في نفسي مذعورا قائلا:
- في القوقاز؟! أنا لم أذهب إلي القوقاز في حياتي!

..لا حراك! يقف أمامي هذا المجنون ، نحن هنا وحدنا ، أنا عاجز وهو ممتلئ القوة، أخذت أنظر حولي في جزع ، أبحث عن إمكانية للخلاص، لكني عاجز على أن أنهض ، قدماي كأنهما من طين، تقدم الغريب واقترب مني وأخذ ينظر في عيني وقال:

- ألا تعرفني؟!

تفوح منه رائحة القبور وتخيلت أني أسمع خشخشة عظام أسفل معطفه العسكري.

قلت وأنا أضع كفي على وجهي حتى لا يرى الرعب الذي يطل من عيني:

- من أنت؟!

قال بهدوء:

- أنا "بيتشورين"

- "بيتشورين"؟!

صرخت من الفزع وقفزت من على الصخرة التي كنت ملتصق بها حتى الآن، الآن فقط فهمت ، لماذا لم يكن هذا الشخص غريبا عني منذ الوهلة الأولى، الآن اتضح لي كل شيء ، كل شيء بان جليّا ، لا غرابة في الأمر، بسرعة تذكرت كل تفاصيل ملامح بطل "ليرمونت" ، تماما كما كنت أتخيله، آه ! إنه "بيتشورين" ، مثال الكمال عندي، هذا الرجل ، هذا الرجل الشاحب ، الذي تفوح منه رائحة القبور لا يمكن أن يكون إلا "بيتشورين"! .. "بيتشورين" العظيم ، القاسي ! "بيتشورين" الرهيب! .. تراجع "بيتشورين" إلى الوراء ، على وجهه علامات الرضا مما رآه .. بقية الحديث أتذكره جيدا وكأنه لم يحدث في الحلم بل في الواقع..ابتسمت لـ"بيتشورين" وقلت:

- أنا سعيد برؤيتك وبأنك ظهرت لي، كنت أفكر فيك معظم الوقت، أتذكرك في الأسبوع الأخير كل يوم.
- مهلا ، مهلا!
- أؤكد لك أن هذه هى الحقيقة، لقد أصبحت نموذج أحتذي به.

عقد "بيتشورين" حاجبيه وقال:

- باللعجب!
- نعم ، إني أتلمس خطاك وأعمل وفقا لمبادئك، أو بالأحرى وفقا لمبادئ أخلاقك.

همهم "بيتشورين" قائلا:

- ماذا أسمع؟! لقد بدأ الأمر يثير اهتمامي.

أما أنا فاستطردت في الحديث:

- أتعرف سيدي قصة "مينا رايدنبرج"؟ جيد ، جيد! أتعرف حكاية "ماكسمليان سيبورن" ، الملازم في جيش المملكة والقيصر؟ عظيم ، عظيم! (كان من الواضح أن "بيتشورين" يعرف كل شيء) ، أعني هذا الملازم الصغير.

كان سواد لون الجبل في ازدياد ، غير أن عيني الرجل الغريب تشتعلان في الظلام كقطعتي فحم ملتهبتان، وكلما حكيت له المزيد من حكاية الملازم الصغير كلما صارت أكثر اشتعالا! .. ثم قرر الملازم الصغير ، وذهب إلى أطباء مهرة بتروا له قلبه المريض البائس وزرعوا مكانه قلبا صناعيا هادئا، السبب هو أنه أراد أن يكون "بيتشورين"الرهيب الفتاك .. وهنا ضحك الأجنبي:

- هأ هأ هأ!

استيقظ الجبل من نومه على صدى ضحكاته وردد : هأ هأ هأ ..
فزعت الطيور الكبيرة السوداء وطارت تصرخ فوق الأرض الفراغ:

- "هأ هأ هأ"

واصل الغريب ضحكاته وهو يقفز في الهواء وهو في مكانه، ثم بحركة عنيفة ألقى معطفه العسكري ، وكشف عن جسد فسفوري قوي وضحك كالشيطان وقال:

- يريد أن يكون "بيتشورين" الرهيب الفتاك! هأ هأ هأ ، إنه يريد أن يكون "بيتشورين" الرهيب الفتاك ، هأ هأ هأ،

صرخت بفزع:

- آه ، كفى! كفى!

صاح بصوت ضخم تردد في ظلام الليل:

- أتريد أن ترى قلبي الصناعي؟! انظر! ها هو!

رأيته في عتمة الليل بصعوبة وهو يشق صدره ويخرج من أحشائه قلب ملطخ بالدماء ينبض!، أضاء الشعاع الأحمر الصادر من دمه كل الأرض الفراغ!

- أتراه؟! .. أتري قلبي؟!

ثم بدأ يرقص من حولي ووضع عند أنفي قلبه الدامي ومازالت عروقه وشرايينه متصلة بأحشاء الغريب،وهنا ذهب عني الهلع وصرت أنا الآخر وحشيا، تملكني غضب شديد من خيبة الأمل، لقد كنت متأكدا من أن قلبه صناعيا.

صحت فيه قائلا:

- ما هذا! إنك إذن كذاب كبير! أنا هنا ، أمام العالم كله أعلن أنك مخادع قبيح.

- هوهوهو!

- نصاب!
- هاهاها!
- مفسد للأخلاق!
- هي هي هي!

تملكني الغضب الكاسح من قهقهته المتزايدة ، نزعت معطفي وخلعت قميصي ، وصرت عاريا تماما مثله:

- أنا لست نصاب مثلك! انظر! لقد زرعت قلبا صناعيا بدلا من قلبي الحقيقي! انظر أيها الشيطان!

وشققت صدري ثم وضعت يدي في أحشائي وأخرجت منها قلبا داميا ينبض، قلبا ضعيفا ، بائسا!

أمعن هذا الشيطان في الضحك وقال:

- هوهوهو! إن قلبه صناعيا! انظروا كيف أن قلبه صناعيا! هوهوهو!

أخذت ألقي بقلبي في الأدغال وأنا مدمرا ، أشعر بالخزي والعار ، وبدأت أتوسل إليه:

- اتركني! يجب أن أنصرف.
- إلى أين؟!
- إلى هناك ، إلى القمة ، إلى "مينا ريدنبرج" .
- لن تذهب إلى أي مكان!
- أرجوك ! اتركني ... إنها هناك، هناك وسط السحاب.. لابد أن ألقاها اليوم ، إنها تنتظر !
- لن تذهب إلى أي مكان.
- إن عيناها حزينة.. تنظر في الظلام وتنتظر .. هناك أعلى الجبل ، على قمته، بين السحاب ، اتركني!

- ستسقط!
- لا بد أن أذهب إليها .. ألا تفهم؟! .. لا بد!
- ستسقط!
- إنها تنتظر !

هكذا صاح الأجنبي بصوت رهيب:

- ستسقط!

.. ثم ألقى بي من على التل، فسقطت ، حاولت أن أصعد إليه لكن بلا جدوى، أما هو فأخذ يلتقط صخورا ويسقطها عليّ، كانت كتل صخرية ضخمة تهدر من حولي وتدوي وتسقط في هوة سحيقة تكونت من تحتي.

في مكتب سرية الاحتياط وجدت خطابا باسمي، أرسله المحامي والملازم أول المصاب بالفتاء "ويليام شرودر" ، خطيب "مينا" السابق

"السيد الملازم ..

لم أتشرف بعد بمعرفتك شخصيا لكن الموضوع الذي أنا بصدده يعطيني الحق في أن أسمح لنفسي بالكتابة لك كشخص غريب .. كانت الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" خطيبتي لمدة ستة أشهر ، وقبل يومين قررت فجأة أن تفسخ الخطوبة وأعادت لي الخاتم الذي تقبلته مني كرمز للإرتباط، وبهذا التصرف تكون الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" حرة من جديد، أنا أحترم قرارها الذي اتخذته ، وانطلاقا من تقديري الشديد للآنسة " ويلهلمينا ريدنبرج" لن أسمح لنفسي بملاحقتها وأحترم قرار الآنسة "ويلهلمينا"، أنا أعتقد ، بل على قناعة كاملة بأنه لم يكن أمامها طريق آخر نظرا لصراحتها وطبيعتها التي أعرفها، وبقرار الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" لا يحق لي التدخل

في أمورها الشخصية، غير أن الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" نفسها لن تمنعني من متابعة ما سيجري لها، ولأنني أعرف أن وجودك هو السبب في التغيير الذي حدث في مسيرة حياة الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" أسمح لنفسي أن ألفت انتباهكم ..

حضرة السيد الملازم ..

أنني سأتخذ ما يلزم مالم تتعاملوا مع الآنسة "ويلهلمينا ريدنبرج" كما يليق من ضابط ورجل نبيل.

مع خالص احترامي،،،

د، ويليام شرودر"

ثورة ذكر سرقوا منه أنثاه، غير أنني في شوق إلى أن أري ماذا سيفعل المحامي والملازم أول احتياط ، أبو فتاء!

لقد عادت "إيرنا" تحمل معها رائحة ريف شمال النمسا، وهى خليط من رائحة القش والبليحاء العطرية والتفاح .. كسا اللون الوردي وجنتيها ، كان واضحا أنها قضت أجازتها بالكامل على شاطئ نهر "تراوم" مع صحبة مرحة تضحك باستمرار وتصرخ وتغني بسعادة، ألقت على الأرض مجموعة من الصناديق الكبيرة والصغيرة ثم عانقتني ، بعدها اتجهت نحو المرآة حيث انحنت أمامها طويلا هى تهمهم ببعض التحيات الرقيقة.

أجبرتني على أن أجلس على الأريكة وأشعل الغليون .. قامت بنفسها بدس التبغ فيه.. ثم جلست على الأرض تلامس رأسها بركبتي، ثم قالت بلهجة مليئة بالحب:

- تحياتي إلى سيدي ومليكي!
- هل ستصبحين ملكة؟!

- مجرد ملكة! .. لكن أعتقد أنني سوف أكون سعيدة.

أجبتها بصوت صاحب الجلالة "يارل شكول":

- وأنا سأحكم في المملكة والشعب!

أتيحت لي الفرصة أن أرى السرعة الغريبة التي تنتشر بها الإشاعات التي تتعلق بالأمور الشخصية الخاصة بهيئة الضباط.

عندما دخلت إلى مطعم الضباط رأيت العميد يرد على التحية الإجبارية بطريقة سمحة مختلفة وغير عادية، ابتسم لي وكأنني أجمل فتى على وجه الكرة الأرضية،والأغرب أنه انهال عليّ منذ وقت قريب بسيل من التوبيخ من أجل حكاية غبية مع الرائد "هانز" .. شعرت أثناء تناول الطعام – كملازم كنت أجلس على الطرف الآخر من الطاولة – بالعقيد يلقي عليّ نظرات متكررة كلها محبة وود، بالتأكيد هذا شرف لي ، أنا الملازم البسيط!

بعد تناول الحلوى أشعل العقيد سيجارا ، كان هذا يعني إشارة إلى بداية حوار ودي، وكما جرت العادة في مطعم الضباط يبدأ الحديث عن العمل ثم عن أقرب الترقيات في المركز وانتصارات جيوش الحلفاء وقرب النهاية الرسمية للحرب ونهاية المطاف يرسو الحوار عند أفضل وأهم موضوع وهو النساء!.. آه! يجب أن تروا كيف تبدلت الأمزجة ولمعت عيون قدماء المحاربين بالحب، وعلى الفور زالت الفروق بين الرئيس والمرؤوس ، كان فريدا بصفة خاصة النظر إلى العقداء الصُلع وهم يستمعون بشغف واستسلام إلى ضباط الصف والضباط المستحدثين وهم يروون بحماس وبصوت منخفض ومتقطع حكاياتهم، عندها أخذ العجائز يكشفون عن جماجمهم الصلعاء ، ومن وقت لآخر تسمعهم يشفطون لعابهم بطرقة

كريهة عندما تراودهم تصورات قذرة وشاذة لصور أجسام النساء العاريات، ترى عيونهم جاحظة وخدودهم حمراء وقد انتفخت شراييهم على جباههم حتى كادت تنفجر، وعلى الطاولة تفوح رائحة الطعام ودخان السجائر ورائحة العرق تُعبأ الجو الذي يفرغ فيه الرجال رغباتهم الجنسية .. كان اللواء "هانز" يسحب بين الحين والحين منديلا ليمسح لعابه الذي لولا ذلك لسال على غطاء المائدة .. أما المقدم "مولر" فقد وضع كفه من جديد عند أذنيه حتى لا تفوته كلمة .. أطرف ما في هذا الموقف هو أن هؤلاء الفاسقون الذين يستمعون بشغف إلى الحكايات الداعرة من صغار الضبط بعد يدركوا بعد لحظة مكانتهم كرؤساء على استعداد أن يحاضروا في هؤلاء الضباط لمدة ساعة حول شرف الضابط ويثورون على الانحطاط الأخلاقي الذي أصاب الضباط!

أسمع في هذه المهزلة القذرة صوت العقيد يقول:

- السيد ضابط الصف "سيبورن" !

أقبل ناحيته مستغربا وأنا أراه مكفهرا من الحديث السوقي:

- أمرك سيادة المقدم!

نهض المقدم ورسم على وجهه الجدية (كان لديه في جيب من جيوبه قناع مختلف) ثم أشار بود قائلا:

- تعال معي إلي حجرة القراءة ، أريد أن أتحدث معك على انفراد.

كانت حجرة القراءة كالعادة خالية، لم يكن بها فضلا عن بعض الأعداد القديمة من جريدة "دي زايت" و "نيو فراي بريس" و "دانظر أرمي دايزونج" و "سالزبورجر" أي شيء آخر للقراءة،

كانت حجرة القراءة عبارة عن مكان للراحة والقيلولة في ساعات الظهيرة خلف الأبواب المغلقة.

بعد أن أغلق الباب خلفه بإحكام أمسكني من زر السترة وسحبني إلى ركن عند النافذة حيث يقف منفرج الساقين أمامي وينظر إليّ صامتا وتعلو وجهه ابتسامة أبوية عريضة ثم قال:

- مبروك على الخطوبة أيها الضابط !

من دهشتي تاهت مني الكلمات! .. من الواضح أن السيد العميد اعتبر هذا خجل من ضابط الصف أمام العميد ثم ربت على كتفي بحنان:

- الآن عليك أن تعمل على التعجيل بالزواج، وأتمني أن تدعوني للحفل.

أخذت أتمتم من الدهشة قائلا:

- لكن سيادة العقيد ....

قاطعني بإشارة واضحة وقال:

- لا داعي للارتباك ، نحن نعرف بالأمر.

حاولت جاهدا الدفاع عن نفسي وأنا في غاية الدهشة:

- لكن ... يا سيادة العقيد ، أنا لم أعلن خطوبتي على أحد.

أومض العقيد عينيه بثقة وقال:

- أنا فاهم ، فاهم يا سيادة الضابط ، تريد أن تقول أنك لم تعلن خطوبتك بشكل رسمي بعد ، أنا أفهمك جيدا.

- سيدي العميد اسمح لي ...

لكنه لم يسمح لي بالحديث:

- لا تحاول يا سيادة الضابط ، إن الأعذار لن تفيدك .. أنا عندي معلومات عن كل شيء، ألا تعرف أن كل من في

المدينة لا يعرف لماذا فسخت الآنسة "فيلهلمينا" خطوبتها؟! .. بصراحة أقول لك أنني سعدت جدا لهذا الخبر ، ولا يسعدني أن أرى عروس رائعة مثلها تقع في أيدي ضابط احتياط، نحن ضباط عاملون!

- سيدي العميد!
- مهلا! أنا ، العميد لم أنتهي من كلامي بعد، يجب أن تعرف أنني بصفتي قائد المجموعة يجب أن أهتم حتى بالشئون الخاصة بضباطي ويحق لي الحديث حتى عن أدق أمورك العاطفية، وبما أنك شرعت في الأمر فاسمح لي سيادة الضابط أن أعرب عن سعادتي القلبية بحسن الإختيار.

رسم العميد لحظيّا على وجهه علامات الهيبة والشكل الاحتفالي ، تفوح من فمه رائحة الجبن الركفورد:

- لا تنسى سيادة الضابط أن الآنسة من نسل عريق جيد ، تماما كنسلك ، نسل عائلة "سيبورن"، نعم ، إن رجال "رايدنبرج" في عهد "رودلف هابسبورج" جاء ذكرهم في وثيقة الهبة "هيلين"، على حد علمي كانوا جميعهم فرسان شجعان،يجب أن تفخر لذلك يا سيادة الضابط .. كما أن سيدات "رايدنبرج" ذاع صيتهن لجمالهن الساحر، وعلى ما أعتقد أنها أصغر أبناء هذا النسل ، هاها! وأنها ورثت هذا الجمال عن جداتها ،،، هاهاها! أنت أيها الضابط محتال كبير!!

أومض العقيد عينيه بثقة من جديد ، ثم مرر يده على شاربه بسعادة بينما أنا واقف أمامه بلا حراك ، أستمع بإنصات إلى ما يقوله وتحت ضغط التوبيخ لم أكن قادرا على أن أنبس بكلمة احتجاج،

وبينما نحن منصرفان إلى غرفة الطعام صاح عليّ وهو عند الباب قائلا:

- أنت محتال كبير!

كتبت لي "مينا" هذا الرسالة:

"أريد أن أراك، تعال في صباح يوم الاثنين الساعة التاسعة إلى الكاتدرائية، ستجدني عند العامود الرابع في اليسار، سأكون مرتدية فستانا أبيض ... "مينا"

سلمتني "إيرنا" الرسالة بنظرة فظة ماكرة.

- اسم سيدة ؟!

قلت لها ببرود:

- نعم ، اسم سيدة.

أعوذ بالله ، بمجرد أن أرى هذه الملامح الشريرة الغبية على وجه امرأة أشعر أن حيوانا ماكر صغير يقف أمامي ، لذلك أفضل أن أستدير وانصرف إلى شئوني، حيث أن النظر إلى هذا الحيوان الصغير الماكر يجعلني أعصر قبضتي .. فلم أرد عليها وانصرفت إلى أحد الأركان لأقرأ الرسالة على مهل، لم أقرأها بمكر وغباء الحيوانات .. جاءت "إيرنا" ورائي وأخذت تسأل بصوت ملئ برغبة واضحة في الإهانة، واستدعاء لمشهد كريه ينتهي دائما بدموع وبكاء رثاء.

- قل لي من فضلك من هذه التي كتبت لك هذه الرسالة؟

نطقت كلمة (من) بنوع من الاستخفاف والشك والحقد بشكل أثار في نفسي رغبة في معاقبة هذا الحيوان الصغير الماكر، غير أني تمالكت أعصابي وقلت:

- أنت لا تعرفينها.

إجابة كهذه بين الرجال تكفي، غير أنها لا تكفي هذا المخلوق النسائي المتيقظ وهو في حالة هياج، أرخت جانبي فمها باستخفاف ثم جلست على حافة الديوان بتكلف وقالت:

- وماذا لو أردت أن أعرف اسمها؟!

لم أرد عليها .. فمن غير المفيد الرد على أسئلة النساء الغبيات الماكرات الثائرات.

- أتسمعني؟! .. "ماكس".. من كتبت لك هذه الرسالة؟!

رددت بغضب:

- سيدة من سيدات المجتمع.
- سيدة مجتمع؟! .. هاهاها،

لقد وصلت .. وصلت إلى درجة الهستيريا،التقطت القبعة بغضب ثم خرجت إلى الردهة حيث يمكن أن أقرأ رسالة "مينا" في هدوء.

هي ورقة بيضاء صغيرة ، تفوح منها رائحة السوسن، نعم ، رائحة أزهار السوسن، من نهدها أيضا تفوح رائحة السوسن ، فمها مثل كأس السوسن ، قبلاتها لها طعم عسل زهرة السوسن ، أصابعها مثل سيقان السوسن الرفيعة ، أما صوتها ، فهو مثل آلاف الأجراس الصغيرة المتراقصة، أنت ، يا زهرة السوسن البيضاء الطاهرة.

أخذت أدندن بصوت ملئ بالسعادة: أريد أن أراك .. تعال في صباح يوم الاثنين، ستجدني عند العامود الرابع، سأكون مرتدية فستانا أبيض!

لكن مازال هناك ثلاثة أيام بأكملهم حتى يوم الاثنين!

وهنا سمعت صوت "إيرنا" المتقطع الباكي :

- ماكس .. ماكس..

لم أعد أشعر باللذة من قبلات "إيرنا" والرغبة في أن أدس رأسي بين شعرها المنساب الناعم.. أفكاري في وادي آخر ، بعيدا عن "إيرنا"، في الواقع ليست بعيدة إلى هذه الدرجة، فما هي إلا مسافة نصف ساعة على الأكثر، هناك تجلس في فيلا صغيرة من طابقين في الناحية الأخرى من المدينة ، تجلس في حجرتها البيضاء ، حجرة صُنعت لفتاة ، تفوح فيها رائحة زهرة السوسن، زهرة السوسن الجميلة الخاصة بـ"مينا"، غالبا وبينما أنا أقبّل "إيرنا" أتخيلها "مينا" !

في الفترة الأخيرة أبحث فيها عن الأشياء التي لم أكن ألاحظها حتى وقت قريب .. الأشياء التي تزيد من استيائي المتصاعد، بل النفور منها.

افهموا الأمر كما تريدون، إن إيماءات "إيرنا" تزعجني ، يزعجني التداعي السريع لصوتها ، ضحكها ، طريقة كلامها ، مشيتها، دعاباتها تبدو مصطنعة ، طيبتها تبدو لي وكأنها تمثيل، كل شيء ، كل شيء في "إيرنا" يزعجني، وكل يوم أكتشف فيها أمورا جديدة ، جوانب كانت غائبة عني ، كنت أعتبرها وحتى الآن منبعا للرقة والمتعة، على سبيل المثال الحسنة التي في جسمها .. "إيرنا" عندها حسنة صغيرة على كتفها الأيسر ، بجوار رقبتها مباشرة، كنت دائما أقبلها بمناسبة وبدون مناسبة، أما اليوم فلا أطيق رؤية هذه الحسنة .. هناك أشياء أخرى ، ليس فقط هذه الحسنة، في إحدى الليالي وأن أقبّل "إيرنا" فى فمها، شعرت برائحة الثوم تفوح منه ، إلى درجة أنني مازلت حتى اليوم أشعر برائحة الثوم هذه في فمي، عرفت على الفور أنها تناولت في مطعم المسرح سجق بالثوم، أمر

كريه جدا ومنحط، مازالت أتخيل صورة السجق المنحني القصير والكريه، ليس ذنبي أن يقف هذا السجق باستمرار حائلا بيني وبين "إيرنا"!!

ما فائدة هؤلاء العشيقات التي لا ينالنا منهم سوى قبلات برائحة الثوم؟!

هل أصف لكم مرافقة "إيرنا" إلى محطة القطارات عندما سافرت آخر مرة عند أختها في "ايتسبورج"؟ .. وهو كذلك، كانت ترتدي فستانا أبيضا من الحرير ، بدت فيه نحيفة وطويلة وجميلة، اعتقد أن "إيرنا" فتاة رائعة .. عندما أنظر إليها أشعر بالذنب لقسوتي عليها، لكن لا أستطيع أن أشعر بالحب تجاه هذه الفتاة الجميلة.

سرنا معا على أحد الأرصفة ، "إيرنا" تهز يديها ، وكأنها تقول : سأسافر وسأشعر بالوحشة بدونك وسأحزن لأني تركتك وحدك، كل الأنظار تتطلع إلى جسمها لتكتشف ما به من سحر وخاصة عقيد سلاح المدفعية العجوز الوقح!، كان يحملق في وجه "إيرنا" طوال الوقت، لاحظت "إيرنا" ذلك فعبس وجهها، صحيح ، أنا لا أكذب، فعل ما لا يفعله ملازم أول صغير في سلاح الفرسان!

- أترى هذا الرجل الوقح؟! لا أريد أن أرى وجهه. بالتأكيد سيأتي ليجلس بجواري ويعكر صفو الرحلة، عجوز خرف.

كان يجب أن أكون حزينا ، لكني كنت أحبس ابتسامتي وسعادتي بأنني بعد بضعة دقائق سأصبح إنسانا حرا، ولن أضطر إلى مراعاة نزوات النساء ، لن يزعجني أحد في الليل، يقول كل منا للآخر كلمات الحب ولوعة الفراق ، لكن كل منا يؤمن في أعماق

نفسه أن هذا كذب بيّن وأن ما بيننا ما هو إلا إشباع لرغبات حسية ، أما روحانا فهما متباعدتان تماما.

أحيانا نتوقف عن السير ، ينظر كل منا إلى الآخر ،لا أثر للحب في عيوننا ، كل ما هنالك شك ودهشة متزايدة، وفي لحظة قصيرة حدث التالي: سقط عن أفكارنا الغشاء وبدت لنا عارية تماما ، واضحة ومحددة، سيطر علينا الخجل وكأننا نقف عاريان تماما!

أعلنت الإذاعة عن قيام القطار.

- "ماكس" ، لا تنساني!
- بالتأكيد ، لن أنساكي.

أمسكت يدي وأخذت تعصرها ثم اختفت في الزحام .. بعد لحظات لمحتها وهي تصعد إلى العربة بخفة ورشاقة، وعلى الفور ظهرت من خلف النافذة ، تعلو وجهها ابتسامة وهي تنظر إليّ وتلوح بيدها مودعة، هل جلس بجوارها العجوز من سلاح المدفعية؟!

لم أعد انظر اليها، لا أعرف السبب، قلت في قرارة نفسي أنني لن أتطلع إلى "إيرنا" إلا عندما يبدأ القطار في التحرك، ورحت أجول بناظرى على النوافذ المجاورة وأتوقف عند رأس صلعاء لامعة، تضئ وتذكرني بصور الإعلانات في المحطة عن مسحوق ضد الصلع، كنت على قناعة بان "إيرنا" هي الأخرى لا تنظر إليّ وأنها تنتظر حتى اللحظة الأخيرة، وأخيرا صدر ضجيج قصير وتحركت عربات القطار.. التقت نظراتنا ، علت الأيادي تلوح بمناديل الوداع إلى أن اختفى القطار عند أول منعطف، سقط من عن عاتقي عبء ثقيل وأخذت أتنفس الصعداء من السعادة!

واحد .. اثنان .. ثلاث .. أربع .. تنظر على جوربها المخملي ورأسها تميل بإذعان وكأنها تنوء بذنوب كبيرة وثقيلة .. تسقط عليها من خلف فسيفساء النافذة الملونة بقع ذهبية وبقع خضراء وزرقاء .. البقع الذهبية تسقط على جبينها والخضراء على مؤخرة عنقها والزرقاء على يديها العقودتين، إنها "بوتيشيللي" صحابة الفم العذب ومادونا الشاحبة.

إن "مينا" تصلي، ملت عليها ببطء، ليس هناك رقيب .. عامود ضخم في الصالة الرئيسية يحمينا من نظرات المتطفلين .. كانت الكاتدرائية في هذه اللحظة خالية تقريبا.. هدوء شديد تحت قبة الكنيسة الضخمة لا يقطعه سوى دقات قلبينا: أحدهما قلب بانس والآخر قلب صناعي أكثر بؤسا منه مئة مرة!

تعرف أنني هنا ، لكنها لم ترفع رأسها ، لكن شفتاها تختلجان بسرعة وتحني رأسها أكثر وأكثر بكل إذعان، ألم تشعر "جريتا" صاحبة الشعر الذهبي بنفس الشعور عندما رأت عند دخولها إلى المعبد أجنبي غريب أسمر البشرة يقف عند المدخل ومعه دليل أكثر غرابة؟! .. أم أن حزنها المشابه وهواجسها وخوفها من الغرباء لم يلقوا بظلالهم على روحها الصافية؟! .. كانت روح "مينا" المتدينة تشعر بقرب الذنب ، فانتابها الرعب للحظة، ألا توجد نساء كالفراشة الليلية التي تبحث عن الهلاك وقدرها أن تحرق جناحيها في النار؟!

ملت عليها وقبّلتها بخفة على مؤخرة عنقها ، فاهتزت، نعم ، إن القرب من مادونا هو طريقة واهية للحماية من الإنسان الذي يملك قلبا صناعيا مكان قلبه.

جلسنا من جديد على مقعدنا الخشبي في "موناتشلوسلي" بمدينة "هيلبورج" تماما حيث كنا منذ شهر .. ومرة أخرى أخذنا ننظر في صمت إلى المشهد الرائع الممتد من أسفلنا، نعم ، كل شيء كما هو، عمت السكينة قلب "مينا" الرقيق والسعادة الهادئة من حبها الجديد للملازم أول "ماكسميليان سيبورن"، لم يعكر صفو هذه النشوة الكبيرة التي سيطرت على "مينا" سوى أمر تافه ، وبالنسبة لها شديد الأهمية ، ألا وهو أن الحبيب المأمول ، ببساطة هذا الشاب مازال يضاجع نجمة المسرح في "سالزبورج" ، هذه المرأة الكريه المسماة "إيرنا" التي تعتبرها امرأة مذنبة، طوال الوقت وأنا جالس بجانبها وهى تفكر في الأمر وعلى وشك أن تعرب عن استنكارها الكبير لهذا الانحطاط الاخلاقي، غير أنها لم تجد بعد الكلمات المناسبة لتبدأ بها الحديث عن أمر شديد الحساسية كهذا.. أتابع بلذة كبيرة حالة القلق الصامت الذي يسيطر عليها (تعبث بعصبية في مظلة الشمس ووجهها متورد ، يا لها من امرأة جميلة) وأنتظر بلهفة أن تبدأ، وأخيرا انفجرت:

- "ماكس" .. يجب أن تقطع علاقتك بها فورا !
- ماذا؟! .. علاقتي بمن؟!
- أنت عارف!

وجه "مينا" العزيزة يشتعل نارا، أدارت رأسها من الخجل ولم تعد قادرة على أن تنظر في عيني، (لكنها كانت قادرة على ذلك قبل عام)، إنه مشهد ممتع ، لا أحب أن ينتهي، لذلك جاء ردي كمن لا يفهم ماذا تقصد:

- أنا لا أفهم ما تعنين فعلا!

لكن "مينا" استدارت على الفور ووجهها باهت ثم أرخت جانبي شفتيها وقالت باستخفاف:

- أقصد تلك الممثلة.

"مينا" عندما تحس بالخطر تتحدث ببلادة وحدّة ، شأنها شأن أية امرأة إذا تعلق الأمر بحق ملكيتها للرجل، في هذه اللحظة لا فرق بين امرأة عنيفة أو امرأة رقيقة المشاعر ، ولا فرق بين سيدة مجتمع وسيدة بسيطة.. فكل الغرائز ، المنحطة منها والأشد تعفنا تنفجر ، الكلمات بالطبع تختلف لكنها تصدر بنفس الحقد ونفس القسوة، تصدر دائما حادة ، وغاضبة وغبية، "تلك الممثلة" .. قالتها "مينا" بنفس الاستخفاف تماما كما فعلت "إيرنا" وتعليقها "سيدة مجتمع" ! ، فما هو إلا فرق بين طبقتي المجتمع اللتان تنتميان إليهما المرأتان!

- "إيرنا"؟!
- لا أعرف اسمها ، لكنني أقصد تلك المرأة التي تعيش معها.

وحل محل تعبير الاستخفاف غضب محتدّ وحزن حقيقي من تلك الممارسات الفاسدة، آه ، أيتها المخلوقات التي لا تعرف التسامح! .. لقد أوضحت لي "مينا" بما لا يدع مجالا للشك :إما هى أو "تلك الممثلة" ، ولا يوجد حل وسط، في الحالة الأولى يجب أن "أقطع علاقتي بالثانية فورا".

في هذا اليوم كان مزاجي مختلفا ، لذلك أخذت أفكر بجدية تامة:

ما بالكن أيتها النساء ، غيرة بلا سبب؟! يا لكن من حمقاوات غبيات! تتحدثن يوميا عن الحب المقدس الذي لا حدود له ، وأول ما تفعلنه باسم هذا الحب المقدس الفياض ، الحب الذي تدّعون أنه مجرد من الأنانية ، هو أن تقيّدن ذراعينا وتجردوننا وإلى الأبد من حرية الحركة، نعم ، هذا ما تفعلنه، تقيدون أيدينا بخيط حريري رقيق ، وكلما اشتدت تلك الأيادي وذادت فينا غريزة الحرية الطبيعية ، كلما تغلغلت خيوطكن في جلدنا ولحمنا أكثر وأكثر، تراقبن كل خطوة نخطوها ، كل حركاتنا، تتابعن كل كلمة نتفوه بها، كل حركة في عضلات وجهنا لا تفلت من المراقبة، تتسللن إلى أفكارنا ، إلى لفائف عقولنا ، وحتى أحلامنا لا تنجو من شكوككن الرهيبة !! أنتن كالظل الأبدي الذي يرافقنا في كل خطوة ، من الصباح وحتى المساء ومن المساء وحتى الصباح، يا الهي! يا لكن من ماكرات داهيات،،، تجتثون بأيديكن بلا رحمة كل ما هو كبير وقوي وجميل ، كل ما يجعلنا في مرتبة أعلى منكن ، مرتبة قريبة من الله! .. لماذا؟! لماذا؟! .. السبب يا عزيزتي هو أن هذه الأشياء الجميلة تقع خارج مرمى بصركن ، تتخطى أفقكن الضيق ، تقع بعيدا في مكان لن يصل إليه بصركن ولن تصبو إليها روحكن يوما ما .. وحتى لا تبقون على حدود هذه المملكة تأتين بمقص وتقطعن كل ما يتخطى حدود هذه المملكة، كل شيء ، كل شيء تقصصنه حسب رؤيتكن للأمور: الأفكار والرغبات والمحاولات والأحلام والطموحات والمثل .. كل هذا باسم الحب المنقذ الكبير ، فقط لكي تستطعن التحكم فينا بسهولة وأمان، نعم ، هذا هو السبب الوحيد، آه! ياللعار! تصنعن من النسور المهيبة الباسلة قطيع من الغربان الثرثارة ، وعندها تغمركن السعادة لأنكن ستثرثرون معها، تقصصن ريشها لأنكن تكرهن

الأعالي ، الأماكن التي لا يمكنكن متابعتنا فيها، إن بيوتكن هي أسوار وقش وشجيرات جافة وتراب شوارع وأسطح بيوت، تجبرن النسر الفخور بنفسه أن يتمرغ معكن في التراب وأن يقفز يانساً يغني ويغني .

هذا اليوم كان مخصصا للإله "باكوس"، نحتفل دائما بـ"باكوس" حينما تأتي اللحظة التي تفيض فيها نفوسنا بفوضى عارمة لا تجعلنا نفهم حتى أنفسنا ، حينما تتصاعد الحمم البركانية من شراييننا من شدة الألم ، حينما يملأنا الحزن، عندها نبحث عن إله يتمتع بقداسة القدم ، نضع بكل صدق وحب القرابين عند محرابه وعلى مذبحه كما تقول التقاليد القديمة التي ورثناها عن أجدادنا على وقع جلجلة أصوات زجاجات النبيذ وأصوات المصليين والصراخ والرقص، كما أن الإله "باكوس" رحيم بمحبيه، فهو يشفي ، يذيب الحمم ويخمد النار ويخفف الألم ويبدد الحزن، وهذا في وقت قصير، يحيا الإله "باكوس" ، الرحيم الرءوف!

اليوم حدثت القطيعة مع "إيرنا"، لقد حدثت! هأ هأ هأ!

كانت تجلس أمام المرآة تصلح من تسريحة شعرها،يا الهي! يا لها من ضفائر رائعة تفوح منها رائحة العطر! كنت أقف جانبا عند النافذة أتابعها بلا توقف، إلى أن تملكني دوار عجيب، إنها لا ترتدي سوى قميص نوم يكاد يقفز من تحته ثديها البض الأبيض المستدير ليثير في نفسي شهوة عارمة، لكني عازم على قرار لا رجعة فيه ، ويجب أن أنهي كل شيء كما خططت له (فليحيا بيتشورين!)، أخذت أقرص ساقي حتى لا يغلبني الدوار وأعضّ على شفتيّ وأعصر قبتي

حتى كادت أظافري تخترق جلدي، إلا أن أصابعي بدأت تستشعر عناق حار ، ترقص أمام عيني شفتان ممتلئتان ، أسمع في أذني طنين خفيف، أشعر بأن عزمي الأكيد بدا يلين، جزء من ساقيها يظهر من تحت القميص ، يالهما من ساقين ناعمتين مثيرتين للغرائز.

الآن ترفع ضفائرها

آه! لقد تغيرت، اتخذت رأسها ملامح القطة ، نعم ، القطة الغبية ذات الأنف الوردي الغريب والفم الساقط التعيس، إنه أمر كوميدي إلى درجة كبيرة ولكنه قبيح بل مقرف، إنها ليست "إيرنا" التي أعرفها ، تلك الحسناء ، نجمة مسرح "سالزبورج" ، جولييت اللورد "أماندل" الفاتنة، لا ، إنها هي ، وما هي في الحقيقة إلا قطة غبية، تذكرت حكاية جميلة، على ما أتذكر عن التعيس "فيليرز دي ليسلا آدم" ، عن مجتمع الصالونات الذي تتخذ فيه رؤوس الحاضرين ملامح وأشكال شبيهة بملامح الحيوانات، لماذا ؟! ها؟! لماذا يجب أن تكون "مينا رايدنبرج"؟ بسبب زهرة السوسن البيضاء الفواحة التي تصدر جلجلة فضية.

لقد مرت لحظة الضعف ، أرتخت قبضتي وهدأ الدم في عروقي .. نعم ، لقد بدأت أسترد وعي وصرت قويا ماضيا فيما عزمت عليه .. أشعلت سيجارة ثم تقدمت من خلفها تماما منفرج الساقين ، أنفخ دخان السيجارة صوب رأسها باستهانة واستفزاز، يرتد الدخان على المرآة ليعوقها عن شبك ضفائرها الثقيلة التي تفوح منها رائحة العطر،

قالت وهى تستنكر ما أفعلة بابتسامة:

- "ماكس"!

تماديت في فظاظتي.

- من فضلك! أنا لا أستطيع ...

ثم ضغطت على شفتيها الحمراء القانية، هاها! نحن مُحصنون يا عشيقتي الجميلة! نحن محصنون!

فقلت باستخفاف وكأنه أمر معتاد:

- الأمر في الواقع هو أنك يجب أن ترحلي اليوم.

توقفت عن شبك ضفائرها ثم صوبت عليّ نظرها من خلال المرآة باستغراب ودهشة، يا لها من نظرة غبية!

تمتمت لوقع المفاجأة قائلة:

- أنا لا أفهم ماذا تعني؟!

قلت بنغمة ملينة بالود:

- أعتقد أن سيكون من الأفضل أن ننفصل.

ابتسمت برقة مصطنعة.

- إنك بالتأكيد تمزح!

ثم واصلت فتل ضفائرها، أرادت بذلك أن تعطي انطباعا بأن الأمر ليس سوى مزحة غير مناسبة لكنها تغتفر نظرا لمزاجي المتقلب الذي اعتادت عليه.

لكن لا ،،، لقد أدركت بوضوح أنني لا أمزح على الإطلاق وأنني أعني ما أقوله جيدا، أرى كيف شحب لون وجنتيها فجأة! ، حتى يدها بدأت ترتعش وقتم لونها كالبحر قبيل العاصفة، إنها تعلم جيدا أنه لا يوجد مخرجا آخر ولن يغير أحد مما تقرر وأن كل شيء قد أعد جيدا وبجرأة، لكنها أرادت فقط أن تكسب بعض الوقت، فطالما خسرت المعركة فليكن الانسحاب شريفا ومقبولا.

- انظري "إيرنا" ، لنفترق أصدقاء كما يليق بعاشيقين وصديقين عاقلين.

هكذا قلت بهدوء وأنا أمرر يدي على شعرها الناعم الذي يفوح برائحة العطر، غريب أنني لا أشعر بالأسى ولا تأنيب الضمير وكأن كل شيء قد وضح وتلون بألوان بهيجة .. كنت وأنا أتحسس شعر "إيرنا" أفكر في "مينا" وجلجلة زهرة السوسن الفضية.

أخذت "إيرنا" تردد في هدوء وعيناها جاحظتان:

- لكن لماذا؟! .. لماذا؟!!

همهمت وأنا أحاول أن أضفي على صوتي صبغة مأساوية:

- "ليس هناك طريق آخر"!

ولأن شيء آخر أفضل لم يخطر على بالي.. أخذت أنظر إلى أحد جوانب الحجرة حيث يوجد فستان "إيرنا" الذي ترتديه في الصباح ..ساد صمت مزعج بدأت في هذا الصمت أشعر بشيء مفاجئ وكوميدي إلى أقصى درجة ، في الواقع أن كلانا يمثل على الآخر كوميديا بحته، فقد كشف كل منا عما في داخله للآخر منذ زمن وصار كل منا يعرف مدى عقم مشاعرنا! .. أخيرا ؟!! منذ زمن بعيد ونحن ننتظر هذه اليوم ، الذي كان حتما سيجيء ، فكل المؤشرات كانت تشير إلى اقترابه، غير أننا لم نكن نعرف أنه سيكون بهذه البساطة وأنه سيكون علينا أن نمثل مسرحية هزلية حتى نتوارى خجلا من هشاشة مشاعرنا!

كل منا يتطلع الآن إلى الفصل الأخير، لكن لماذا كل هذا؟ فما هو إلا ضجر بلا طائل.

- ياللهول! إنه شيء مؤلم ، مؤلم جدا، إنه يدفعني بعيدًا عنه ولم يعد يحبني، "ماكس" ، "ماكس"! هل أنت واثق مما تفعله؟

ثم انخرطت "إيرنا" في البكاء وبإيماءة جميلة أمسكت بيديها طاولة المرآة وكأن لحظة ضعف تمكنت منها، إنها لربما يغمى عليها إن تطلب الأمر ذلك ، لكن أتمني ألا يحدث هذا ، فهو ليس في السيناريو!

أجبتها:

ـ لقد قلت يوما ما: أنا الحاكم في المملكة والبلد،

ردت "إرينا":

- لكني كنت الملكة!
- نعم ، كنت الملكة التي تنال عطف سيدها ، وتعرف أيضا أن تكون فخورة بنفسها،

لقد اقتبست هذه الكلمات من "إيبسون" وقلتها بشيء من الغطرسة!

أطلقت إلى التراجيديا وميض مداعبة وقالت:

- لكن .. من سيعتلي عرشي؟!
- آها!
- أهى سيدة المجتمع؟!
- شيء من هذا القبيل، على كل حال لقد تدبرت لك شقة مناسبة في منطقة "زلاتي كاتشكا" وستعجبك، وسيكون خادمي تحت أمرك في أي وقت، ويمكنك أن تبدأي من الآن إذا أردتي.

راحت تصيح وهى تغطي فمها بيديها حتى لا أرى عيونها التي لم تذرف دمعة واحدة .

ـ "ماكس" ، "ماكس"!

أخذت أهدئ منها برقة واجبة في مثل هذه الحالات:

- بالله عليك يا "إيرنا" ، يا طفلتي العزيزة ...

واصلت ندبها:

- "ماكس" ، "ماكس"!

ثديها يموج من البكاء المتشنج ، تماما كما فعلت مئات المرات على خشبة المسرح تحت أضواء المصابيح!

غادرت البيت في صمت ولم أعد حتى ساعة متأخرة من الليل وأنا أترنح سكرا، لا أعرف ما الذي دفعني لشرب الخمر.

وجدت على الطاولة وردة جميلة وبطاقة بيانات "إيرنا" كتبت عليها: وداعا! قبلاتي.

في الواقع إن "إيرنا" فتاة رائعة ..في اليوم التالي قمت بتغيير الحجرة.

أنا حرّ!

بعد أشهر طويلة صرت حرا من جديد! .. حرّ منذ الصباح وحتى المساء ومن المساء وحتى الصباح ، طوال الوقت ، حرّ إلى الأبد! حرّ في كل لحظة وفي كل مكان وتحت أي ظروف وبالأخص في البيت ، بين أربعة حوائط ، في مملكتي! أنا حرّ! ، أشعر بالحرية والانطلاق في كل شيء ، أفعل ما يحلو لي ، ياله من شعور رائع وجميل! أليس هذا سببا كافيا بأن يكون الإنسان صريحا ومباشرا؟

أنا حرّ ! .. هواء!.. ضوء! .. آفاق رحبة!

فجأة بدأت أشعر كالسجين الذي تمكن من الهرب من سجن كريه ، يلتفت برأسه في الهواء الطلق ثم يصاب بدوار خفيف ، يكاد يسقط على ركبتيه ليقبل تراب الأرض .. أشعر أيضا وكأن جسمي

وروحي قد تعافيا بعد مرض شديد،نعم! هذا هو شعوري، (ألم تكن كالمرض منذ البداية؟)

جاء في أوامر اليوم أن الملازم "ماكسميليان سيبورن" سينضم إلى سرية المشاه الثانية، هذه السرية سوف تغادر في الأيام القليلة القادمة إلى الجبهة تحت قيادة الملازم "فيوريللي" وهو شخص ضخم الجسم ، أسود العينين من مدينة "ترنتين"، تدور حوله الأقاويل بين الضباط، لكنه يحظى في الفوج بثقة كبيرة، فقد حصل على ميداليا ذهبية عن شجاعته وهو مازال ضابط صف، الضابط "فيوريللي" رجل جاد ، قليل الكلام ، عابس دائما، لا يظهر في الحفلات ولا يرافق الفتيات ولا يتردد حتى على الأماكن العامة في السرب، باختصار هو رجل ملتزم بمبادئ الأخلاق وبالتأكيد يحتقر كل من حوله ، بدأً من العقيد وحتى خادمه الذي يعاني عنده من حياة صعبة، غير أنه يجب أن يتوخى الحذر في توقعاته، فقضيته مع "باتيستا" أزعجت الجميع، لا يمكن أن أخفي تعاطفي الشديد معه حيث أنني لا أحب الإيطاليين كثيرا وبخاصة هؤلاء المنحدرين من مدينة "ترنتين" الذين لدي معهم خبرة..

بالإضافة إلى ذلك يوجد أيضا الملازم أول "هوبر" و "فاوريستر" وضابط الصف الكريه ، الطالب أصفر الشعر "كونزل" الذي ينحدر من منطقة على حدود "ساكسونيا"، "هوبر" ضابط نشيط ، كنا ندرس معا في كلية "انسبورج" العسكرية، إنه شخص تافه متغطرس، يعتبر نفسه أجمل الشبان ولكي يزيد من جاذبيته كان يرتدي حزام عريض على خصره ليزيد من نحافته، أما الضابط "فاوريستر" فهو يعطي انطباع الشخص المتملق العنيد .. بالنسبة

لنا الضباط العاملين هو شخص متملق ويؤذي ضباط الاحتياط في كل مناسبة، في الغالب سيكون هناك تصويت وسأكون أول من يصوت ضده،

باختصار كل زملائي في السرية على هذا الحال.

ياله من فريق؟! كلهم عبارة عن فتية في سن التاسعة عشرة، أطفال! جاءوا إلى هنا من حجر أمهاتهم مباشرة، يسيرون في الساحة صامتين منكمشين ، الخوف يكتسي وجوههم وتكفي كلمة خشنة حتى ترتعد فرائصهم ويشرفون على البكاء، مثل هؤلاء الفتية يرسلونهم إلينا إلى هنا لينضموا إلي تشكيلات المشاه، هؤلاء الفتية الخائفون المذعورون علىّ أن أصحبهم إلى أرض المعركة، إنهم بالكاد يحملون على صدورهم جيوب الذخيرة ، فما عساهم يفعلون في وطيس المعارك؟! .. كيف لي أن أسمي مثل هذا الاستهتار؟! أهو نوع جديد من البطولة؟! .. يلقون حتفهم بسبب الحياة في الخنادق الباردة قبل أن يصيبهم رصاص العدو، ياللهول! من المسئول عن هذا كله؟

بالطبع علمت على الفور بانضمامي إلى كتيبة المشاة - أقصد "مينا"- علمت هذا بالطبع من صديقاتها الرقيقات الرحيمات اللواتي في حالة تأهب دائم للقيام بالأعمال الخيرية.

بعد ظهر اليوم التالي لانضمامي للكتيبة وبعد التدريبات في معسكر الثكنة العسكرية ذهبت في الوقت المعتاد في طريقي إلى المدينة عبر طريق جميل محفوف بأشجار الكستناء ، رأيت سيدة تأتي في مواجهتي ترتدي فستانا أبيض، إنها "مينا"! .. لأول مرة ألقاها بها بدون دعوة ، بدافع شخصي، الأمر الذي لم يحدث مطلقا ولا حتى في الجزء الأول من قصتنا الرقيقة، على ما أتذكر من

لقاءاتنا والأوقات التي قضيناها معا - وما أكثرها- لاحظت أنها رغم استسلامها الجميل وأنوثتها العذبة كانت دائما امرأة فخورة بنفسها على غير العادة وصعبة المراس .. نعم ! حتى في أخص اللحظات التي جمعتنا سويا كنت أشعر وكأن حائلا يقف بيننا ، يمنعني من التغلغل في أعماق روحها، أتذكر أنه ما من موقف حتى وإن كان شديد الخطورة إلا وتغلبت عليه ، صحيح ، بنفس الإيقاع ونفس اليدين الرقيقتين ، الأمر الذي استحق الإعجاب الكبير، رغم أن ذلك على حساب سمعتي كملازم أول (يا الهي ، ألم نكن مجرد أولاد مغرورين ، نحن الضباط!)، واليوم تأتي وحدها مكفأة الرأس تخطو كمذنبة تطلب العفو .. آه يا عزيزتي! لسنا ببعيدين عن تحقيق الهدف، خسارة أنك لا تصدقين .

تقدمت منها ثم صحت بابتسامة وترحيب بالغ:

- يا لها من صدفة رائعة!

غير أنها قاطعتني على الفور بلهجة غاضبة وقالت:

- "ماكس" أصحيح ما يقولونه؟
- ماذا حدث بالله عليك؟!
- قالوا لي أنهم ألحقوك بكتيبة المشاة.

راحت تنتظر الرد بقلق وتلهف وهى تمسك بخفة كم قميصي، أما أنا فأخذت أعدّ لها بتلذذ كلمات تجعلها تتعذب:

- نعم ، هذا حقيقي، في الغالب سوف نرحل بعد عدة أيام لننضم إلى الفوج بالطبع، فقد مني بخسائر كبيرة يجب تعويضها بقوات جديدة.

- لكن .. لكن .. لكنك كنت منذ فترة قصيرة على الجبهة.

- وما العمل يا حبيبتي؟! لقد صدرت الأوامر ويجب أن تنفذ.
- ألا يمكن أن نفعل شيء؟ أعني اتصالات عائلتي الواسعة.
- لا فائدة من هذا، و... وأنا لا أحب أية وساطات ، فقد يسلط هذا الأضواء علىّ ويثير التساؤلات، فكري جيدا! ضابط شاب طموح ، ممتلئ بحماس الحرب ، على استعداد أن يضحي بحياته في كل لحظة من أجل عظمة المملكة (هذه هي إيماءاتي الكبيرة!) .. لا ، لا، لا يمكن أن أغير قرار القيادة وسأذهب طالما صدر القرار ولست وحدى.

لحظة صمت طويلة ثم همست قائلة:

- ألا تفكر في؟! وما سيحدث لي؟

ماذا سيحدث لك يا جميلتي "مينا رايدنبرج" صاحبة الوجنة الشاحبة؟ الله أعلم، لو لم يكن لدي (هاها – قلب صناعي) لقلت كما قال "فلنتينو" وهو على فراش الموت: ،،،*

نعرف الآن بالتحديد تاريخ المغادرة ، سيكون يوم الأحد ٢٦ يونيو، أعددنا اليوم المعلبات والأربطة .. بعض أبطال وحدتي بكوا وهم يضعون لهم المعلبات والأربطة في الحقائب.

- "ماكس"!
- أنا أسمعك يا "مينا".
- هل تحبني كثيرا؟
- أحبك كثيرا.
- أكثر من أي شيء؟!

- أكثر من أي شئ.
- وماذا لو مت؟!
- سأموت أنا أيضا!
- عاهدني!
- أعاهدك!
- "ماكس"
- أنا أسمعك يا "مينا"،
- آه ، قل يا حبيبي ، لماذا يتملكني حزن غريب ، لماذا يتدافع الدمع إلى مقلتيّ؟ لماذا لا أستطيع أن أسعد بقبلاتك؟
- إنه القلق ياجبيبتي!
- لماذا هذه الأحلام الغريبة التي تراودني كل ليلة؟
- إنه القلق ، لا أكثر.

محامي مجنون! ..

جلست في المطعم أتناول عشائي وأرتشف في صمت من الكأس وفجأة أشعر بنظرة حادة من وراء ظهري، استدرت بهدوء وإذا بي أرى في أحد أركان المطعم المحامي "شرودر" ، خطيب "مينا" السابق ، وهو ينظر إليّ بلا حراك، كراهية شديدة تنطلق من عينيه الكدرتين ، حقد وغضب رهيب، لو كانت النظرة تقتل لوقعت على الأرض قتيلا من آلاف الإصابات ممزقا إربا، يجب أن أعترف وبدون خجل بأن رعشة خفيفة سرت في جسمي جعلتني أصرف عنه نظري سريعا قبل الآوان، لابد أنه يكّن لي كراهية شديدة لا حدود لها، يا الهي! أنا أحترم كل رغبة أيا كان سببها، فكل رغبة جميلة سواء

سقط الإنسان بسببها في الوحل أم علا بين السحاب ، المهم أن لا يكون الناس دائما مثاليين بلا أخطاء أو سقطات.

لذلك لم أشعر بالكراهية أو الغضب أو النفور عندما كان المحامي "شرودر" يلقي بي سرا في الجحيم ، بل تحرك في نفسي ما يمكن أن نسميه بداية المشاطرة الدفينة.

ألسنا جميعا ، نحن الرجال بدون استثناء ، آباء وأبناء ، أزواجا وعاشقون مخدوعين وخادعين ، مقبولين ومرفوضين معذَّبين ومعذِّبين ، أخوة نقاوم مصيرنا المشترك؟ .. أليس قدرنا جميعا بدون استثناء منذ بداية الخليقة أن نكون هدفا خالدا لنزوات المرأة؟ .. ألا نواجه يوميا الأنانية والمكر والظلم من أعزهن وأقربهن لدينا: من أمهاتنا وزوجاتنا وعشيقاتنا وأخواتنا؟ .. ألا ننتظر في كل لحظة وفي كل مكان هجوم جديد من خصمنا الأبدي الذي يأتي بيد رقيقة وابتسامة عذبة ليصيبنا عن قصد إصابة دقيقة في أكثر الأماكن إيلاما؟ آه أيتها المرأة! آه من نفس العصور القديمة! آه أيتها الأمهات والزوجات والعشيقات والأبناء وكل ما ينتمي إلى جنس النساء! .. تفوح منكن رائحة أدغال العصور القديمة الكريهة ، التي جئتن منها بخطى حيوان مفترس ملئ بالغرائز المخيفة القاسية عديمة الرحمة، يلوح من نظراتكن وميض حيوان مفترس ، شفاهكن الحمراء لها طعم الدم الساخن ، حدة أسانكن البيضاء تشبه أسنان حيوان مفترس ، في ثنيات ابتسامتكن تختفي سعادة الدنيا ورعب جهنم ، فتحات أنوفكن الوردية ترتجف من رغبة دفينة ، وخلف نغمة صوتكن الوديع يختفي هدير العصور القديمة ، نعومة أجسادكن البيضاء تذكر بالأفعى السامة ، حلاوة قبلاتكن تتغلغل في أعماقنا ، تشترونا بأحضانكن الدافئة.

أكتب بوضوح وبدون أي لبس: ١٥ يونيو ١٩١٧

إن هذا اليوم الذي قدر لي فيه بكل رحمة وقسوة أيضا أن أفرغ كأس النشوة الرهيبة الكبرى حتى آخر قطرة ، حتى القاع .. اليوم الذي هبت فيه نسمة الخلود ونتانة التحلل الفظيعة، انه اليوم الذي حملني إلى العلا ، في الفضاء ووضعني بيد قاسية في غياهب الظلمات، انه اليوم الذي تعرفت فيه على جمال السماء وبشاعة الجحيم، انه اليوم الذي اقدسه في اليوم مئة مرة وألعنه في اليوم مئة مرة ، انه اليوم الذي أعرف صورته جيدا ، اليوم الذي سأظل أتذكره وألعنه حتى النهاية!

في هذا اليوم أصبحت "مينا" ملك لي وحدي ، كلها ، كل ما فيها بجسمها الأبيض البض، جاءت إليّ وأخذتها بين ذراعيّ بشدة وعنف وقسوة كما ينبغي لإنسان لديه قلب صناعي مكان قلبه!

شعرت في ساعات الصباح المبكرة بقلق غريب وكأنني استدعيت قرب اللحظات الكبرى، كان القلق يتزايد من ساعة إلى أخرى، وفي الظهيرة لم أتحمّل البقاء في الثكنة العسكرية ، فتجاهلت قعقعة معدتي وذهبت إلى الفندق الذي أنزل به، صارت خطواتي تسرع كلما اقتربت من "هوريزن" (إنه اسم الفندق)، أسرعت مخترقا ميدان "موزارت"، وفجأة عند الكنيسة اليشوعية بدأت أفهم سبب قلقي الغامض، لقد كان التوقع بقدوم "مينا" هو السبب، نعم ، شيء ما في أعماق أعماقي يؤكد لي أن "مينا" ستأتي لتعرض علىّ جسدها البكر، آه ، لكم كنت على ثقة راسخة بأنها طاهرة! أليست هى زهرة السوسن البيضاء الرقيقة التي تظل تفوح برائحتها الذكية ما لم تمتد إليها يد آثم؟! .. إن العذرية تتجلى في كل حركة تأتي بها

وكل كلمة ونظرة، لم يكن هناك سبب للتشكيك في ذلك الأمر فلديّ حاسة عجيبة تجاه هذه الأمور لم تخذلني يوما!

أخيرا وصلت الفندق .

- هل سأل عني أحد؟

لا ، حتى الآن لم يسأل عني أحد

- انظر يا "فرانك"! أريد بعض زهور السوسن الجميلة ، فقط السوسن الأبيض الطازج! .. ماذا؟! ليست أوانه؟!.. لا يمكن أن أحصل عليها؟ زهور السوسن غير موجودة! ياللخسارة!! .. إن "مينا رايدنبرج" ، أجمل عشيقة في الدنيا كانت لتسعد بها كثيرا .. إذن اعطني وردات بيضاء من فضلك ولتكن لها رائحة طيبة وبعض نبات الخشاش الأحمر الدامي (انه سيكون فاتنا على صدرها الكبير) وبعض من زهرة البليحاء والكثير من أغصان البتولا .. معقول! أيضا غير موجود؟! "فرانك"! .. يجب أن تحصل عليه حتى ولو سافرت من أجلة حتى آخر العالم! كيف أستقبل عشيقتي الفاتنة بدون عناقيد البتولا هناك في الركن على الطاولة؟ أنني أخجل من نفسي يا "فرانك" وسيتكون صحبة الورد فقيرة ، بسيطة، اسرع يا "فرانك" بسرعة! ، لم يبقي سوى أقل من دقيقة ، ففي كل لحظة يمكن أن يأتي ضيفي الغالي، سأدفع كل أموالي مقابل ذلك.

أفرغت أمام الخادم "فرانك" كل ما في حافظتي ، خمس وستون كرون تماما، فلأنفقها جميعا على الورود، آه ، النقود تروح وتأتي لكن "مينا رايدنبرج" ستخطو عتبة بيتي لمرة واحدة ولن تغادره كما جاءت، إنها لحظة يجب أن أعطيها حق قدرها، هاهاها ...

ستأتي ، بالتأكيد ستأتي!، كل مشاعري تقول لي هذا، مستحيل أن يخيب ظني، أدقق النظر وأرها بوضوح وهى تقف خلف نافذة غرفتها البيضاء ، تنظر بحزن في المجهول وتتردد ،إنها تصارع نفسها، لكن ترددها لن يستمر طويلا، أليست إرادة القدر التي لا تتغير قد حددت مسبقا أنها اليوم ستسلم لي نفسها بالكامل؟! .. لن تبدلين القدر يا حبيبتي، فقط تصعبين رحلة التضحية لتصلين إلى حبيبك ذو القلب الصناعي مكان قلبه!، لكن بعد لحظة ستنصرف "مينا راينبرج" من خلف النافذة ثم بحركة لا إرادية ترتدي قبعتها البيضاء وتصلح من طيات تنورتها وتحسس على تجاعيدها.. إلى أين تذهب الآن ؟! نعم ، فوق سريرها الأبيض يوجد صليب حديدي ، تحني رأسها في خضوع ثم تحرك يدها على شكل الصليب ثلاث مرات .. في الواقع كانت تركع هكذا ذلك اليوم ، يوم الأحد أمام تمثال "السيدة العذراء" (تساقط على جسمها عبر فسيفساء النافذة بقع ملونة ، ذهبية وزرقاء وخضراء ، ذهبية سقطت على جبينها ، وزرقاء على رقبتها وخضراء على يديها المضمومة) ، لكني أسألك يا حبيبتي! هل ستحميك هذه الصلوات والعذراء الشاحبة، ذات الآلام السبع لم تستطع أن تفعل لك ذلك؟ أترين؟ ها أنت نهضتي لتبدئي طريقا لا رجعة منه، لو لم يكن لي قلب صناعي مكان قلبي لبكيت عليك يا حبيبتي ، صدقيني!

باندفاع العجلة كلفت زميلي الملازم المتواضع بأن يرتب الغرفة، لم يكن بها الكثير ، فوق الأريكة سيفان للمبارزة متقاطعان معهما جرابهما، في المقابل وفوق السرير بندقيتان قديمتان مرصعتان بالنحاس (مجرد تركة ورثتها عن أبي) ، فوق منضدة الكتابة ست صور شخصية لـ"إيرنا" وهى تمثل أفضل أدوارها ،

اثنان أو ثلاث صور مطبوعة ملونة لا قيمة لها (مجرد شيء أغطي به الحائط) وهذا تقريبا كل ما أجمل به غرفتي الصغيرة، لا ، بل نسيت الجيتار المزيّن بالأوشحة والموجود على طاولة صغيرة بجوار السرير وكذلك حذاءان من النوع طويل الساق، ماذا تنتظرون غير ذلك من ملازم أول لا يعرف -وهو الآن في منتصف الشهر- كيف يغطي "نفقات حرفته الضرورية"؟!

في النهاية وصلت الزهور .. حملها "فرانك" بملء ذراعيه ، بست وخمسين كرون تستطيع أن تحصل على أي شيئ، ماذا؟!! ، وحتى السوسن؟! .. "من أين جاء "فرانك" بزهرة السوسن؟! إنه شهر يونيو!، بالطبع ومن حسن الحظ بائع الزهور في شارع "أوبيلني" كان مازال عنده بعض زهور السوسن ، آخر زهرات الموسم ، آخرها على الإطلاق هذا العام .. كم ستسعد بها "مينا رايدنبرج"! بالفعل صدفة نادرة، أو ربما تكون إشارة لما سيحدث.

نشرت الورود في كل أنحاء الغرفة، وضعت زهر السوسن في زهرية من الخزف أمام المرآة وزهور الخشاش الأحمر على الطاولة وأغصان البتولا على طاولة الزينة، بعد ذلك ألقيت نظرة أخيرة على الحجرة فبدت لي لطيفة.

ستعجب "مينا".

تلقى "فرانك" إشارة بأن يترك سيده وساد صمت شديد في الحجرة المتأهبة، إن حبيبتي على ما يبدو قادمة.

لا ، بالتأكيد قادمة! ، أراها بوضوح وهى تخرج من نفق " رايدنبرج" بيضاء ، منتصبة، أراها وهى تنعطف عند مدرسة السباق وتتجه نحو مبني الجامعة ، لا تلقي بالا للناس من حولها ولا لنظرات صغار الضباط المتطفلين ، فقط تسير وتسير وهى تنظر بحرقة ..

الآن هى عند مبني البلدية وتسير عبر ممر ضيق .. الساعة تدق الثانية .. صارت الآن فوق الجسر ، لا تلاحظ شيئا من روعة الجو في شهر يونيو .. الآن يجب أن تمرّ حول "جزيرة القرود" ، لكنها حتى لا تحني رأسها -وكأنه حلم- ، تعبر بجرأة التقاطع الخطير وتدخل شارع "ليناتسكي" ،إنها لا تبعد الآن عن الفندق الذي أتواجد فيه سوى حوالي مئة متر .. آه! لقد أبطأت الخطى .. نعم ، ما هى إلا مئة مترا تبعدها عن باب غرفة عشيقها المنتظر ، ما هى إلا لحظات .. إن "مينا رايدنبرج" تتمنى أن تصبح المئة متر هذه مئة كيلومترا في غمضة عين ، وفي الوقت نفسه تتطلع إلى اللحظة التي أضمها إلى صدري وأعانقها بحرارة .. أم أنها توقفت للحظة حتى تأتيها معجزة من السماء تمنع ما لا يمكن منعه؟ .. لا فائدة من هذا يا عزيزتي، ها هي تعبر الردهة (يالكمّ الأعين الفضولية تتابع اضطرابك الفاتن!) ها أنتي تضعين قدمك على أولى درجات السلم .. تقبضين بشدة بيدك البيضاء الصغيرة على عَامود الدرابزين .. لا تخافي يا عزيزتي ، سيزول هذا سريعا ، سريعا.

تك ،، تك ،، تك،، تك،،

ثم صمت حاد، وبعد لحظة قصيرة طرقت من جديد ومن جديد:

تك،، تك ،،تك،،

في الواقع ربما لم أسمع وقع خطواتها ، فالسجادة الناعمة تمتص أدق الأصوات، لكنني أشعر بها ، أسمعها، ها هى: تك،،تك،،

في الواقع أن عيني في ظهيرة هذا اليوم الذي لا ينسى كانت كأشعة إكس بدون أدنى مجهود تسللت عبر حوائط البيت الغليظة .. ألم أرى "مينا" وهى تقف عند نافذة غرفتها البيضاء تتصارع مع نفسها؟! ألم أتابع خطواتها ، خطوة خطوة حتى وصلت إلى باب

شقتي ؟ إلى الموت؟!.. آه ، دقيقتان بالكامل تمسك بالمقبض ، أرادت أن تنزعه منة مرة ، ولم تستطع يالها من متعة! .. طبعا كنت أرى هذه المباراة الصعبة في الردهة، وطبعا كانت تعرف أن كل شيء مخططا له مسبقا ومعد تماما ولا يمكن تغير أي شيئ، وهكذا ، وبعد الدقيقتين أدارت المقبض.

لا أنسى ولو لحظة واحدة مما حدث، كل شيء أراه بوضوح كالشمس أمام عيني، انفتح الباب ببطء على مصراعيه ، نعم على مصراعيه، الأمر الذي أدهشني ، ثم ظهرت "مينا" وهى تقف عند عتبة الباب بلا حراك، نظرت إليّ طويلا، نظرة جعلتني أشعر بالارتباك، في الواقع هذا أمر عجيب ، عجيب هذا الذي تحمله نظرات امرأة تواجه أهم لحظة في حياتها، في الحقيقة كان هذا شيئا رهيبا، لقد أدارت المقبض ثم "خطت خطوة" ، ورغم أنها كانت تعرف أنها ستخطوها ، إلا أن كراهية رهيبة تتطاير من عينيها وشعور بالهزيمة، ثم امتلأت نظرتها بالحزن الشديد .. إحساس مرهف من امرأة كانت تستشعر كل شيء ، كل ما هو قادم لامحالة، إنها في هذه اللحظة القصيرة تغلغلت إلى أعماق نفسي ولم يعد شيء خافيا عنها ، لقد عرفت كل شئ! .. رأت كل شيء بجلاء .. لكن حتى وميض نظرتها انطفأ وتراجع أما نظرة الشهوة ثم الرقة ثم في النهاية منتهى الخضوع، عندها صارت ملكا لي وإلى الأبد!

وبهذا الخضوع تقدمت نحوي ، نحو من ينتظرها منذ الأزل ! ألقت نظرة حذرة على الغرفة.

- أكنت تعرف أنني قادمة؟!
- أخ ، تقصدين زهور السوسن في الزهرية والخشاش على الطاولة .. نعم كنت أنتظرك، هل هذا شيء غريب؟!

آه، ألم يكن هذا بالفعل أمرا غامضا؟ .. لكنني شعرت بوضوح في هذه اللحظة أن شيئا كئيبا ورهيبا يحدث وأن هناك في المجهول حدث انهيار صخري مخيف يدمر كل شيء ويبيده، لكن "مينا" توقفت عن التعجب وقالت باستسلام هادئ:

- ما هو الغريب يا "ماكس"؟! .. كل شيء طبيعي: أنت انتظرتني وأنا جئت ، هل كان يجب أن أفعل شيئا غير ذلك؟

هكذا جاء رد "مينا" .. كان يمكن أن تجيب هكذا: "أنا جئت وأنت انتظرتني،" لكنها أجابت بالعكس ومن هذه الإجابة البسيطة قرأت كل الدوافع الأبدية الدفينة، نعم، ثار الدم في عروق الذكر ، اشتدت رغبته فجأة ثم ارتطمت رغبته الجامحة هذه بالحائط وجابت الفراغ إلى أن وجدت طريقها إلى الأنثى البيضاء، رغبة جامحة، فعلا ، ما كانت لتفعل الأنثى البيضاء غير الاستماع إلى نداء الدم؟!

نعم يا "سيبورن"! لكن هل نحن واثقون من هذا؟ .. هل كانت بالفعل مجرد رغبة جامحة لذكر أم لا؟ أهذا هو كل ما في الأمر؟ أليس في الأمر شيء أجمل وأعظم ؟ أم شيء أكثر رعبا وأشد رهبة؟ آه يا "سيبورن"!

في الواقع لقد سجلت كل شيء إلى درجة أن ملاحظة واحدة لم تغب عني .. كان الأمر بالنسبة لـ"مينا" طبيعيا، ألم تخلع قبعتها بكل بساطة؟! .. ألم تبدأ في تسوية شعرها على طريقة عشيقتي السابقة أمام المرآة؟ لا أثر لأي اضطراب على وجهها الهادئ ، ولا حتى علامة على الخجل الدفين، فروحها مازالت بريئة وعذرية ، جسدها (الرائع بالطبع) مازال بكرا، ذهنها مازال طاهرا غير ملوثا بالأفكار الغربية، أيتها السيدات ، أيتها السيدات من يستطيع أن يفهمكن؟!

لقد تفحصت "مينا" الحجرة ودرست تفاصيلها، من المهم للعشيقة دائما أن ترى لأول مرة الأماكن التي يقضي فيها عشيقها حياته، عندها تتعرف حتى على أبسط الأشياء حتى وإن كانت جلدة الحلاقة، هذه الأشياء تسعدها كثيرا ثم يتبعه سيل من الأسئلة الفضولية، هل ستكون "مينا رايدنبرج" استثناء ؟! .. "مينا" التي تدخل لأول مرة في حياتها شقة رجل شاب كل شيء فيها جديد وغريب عليها؟

- أهذه هي خزانة الملابس؟ آه ، ذي الجيش الجميل.. "ماكس" أليس غريبا يا "ماكس" أنني أقف هنا في شقتك ، أتفحص خزانة ملابسك وكأنه أمر طبيعي؟!.. هناك في الركن حذاء لامع ، لكن فرشاة الأحذية صارت بالية جدا ، أنت في حاجة إلى فرشاة جديدة يا "ماكس"، قل للخادم أن يشترى واحدة جديدة من محل "روزينبرج"، أين تضع أغطية السرير؟ .. لا ، دعها لا تفتحها ! أردت فقط أن أعرف مكانها، لكن التراب في كل مكان، لا تنس أن تخبر الخادمة أن تنظف جيدا، مسكين "ماكس" ، إنهم لا ينظفون لك المكان جيدا .. آه! ، هذه من ذكريات الحرب، منفضة سجائر من خرطوشة قنبلة ، غليون تبغ من خرطوشة طلقة ، يا إلهي ، إن مذاقها لذيذ .. وصورة من هذه؟! سيدة ، سيدة ..وصورة سيدة أخرى !، اسمع يا "ماكس"! ..

وهكذا جاء الدور على صورة "إيرنا" المعلّقة في إطار داكن اللون فوق السرير، لم تنطق بكلمة ، كآبة خفيفة علت وجهها ..

وهنا أسرعت بخفة صوب الباب ، ثم أدرت القفل مرتان ووضعت المفتاح في جيبي !

أكرر مئات المرات وأؤكد من جديد أن كل تصرفاتي كانت محسوبة وقائمة على أسس مدروسة، تقولون أن زيارة "مينا" كانت مجرد صدفة وأنها تجاوزت كل حساباتي؟! .. غير صحيح، إنها كانت لتأتي اليوم أو غدا ، حتما كانت ستأتي يوما ما، نعم، إن كل تصرفاتي مدروسة ومعدّة مسبقا، فما قمت به بأن ذهبت نحو الباب أغلقته قد تم بصورة لا إرادية، نعم ، أتذكر جيدا أنه رغم كل "الحسابات" فقبل أن أفعل هذا بقليل لم أكن أصدق أن هذا سيحدث بالفعل، فالذي جعلني اندفع فجأة نحو الباب وأغلقه ثم أضع المفتاح في جيبي لم يكن سوى هذه القوة التي تتحكم في كل تصرفاتي منذ البداية وحتى النهاية ، القوة التي أقف أمامها عاجزا وضعيفا، نعم ، إن كل "حساباتي" ترجع إلى هذه القوة الرهيبة ، القاسية ، إنها تلك اللعنة ، كل من يتبعها يسقط في غياهبها، لست أنا بالطبع ، بل هي .. في الواقع أنا وهي شخص واحد ! أما المسئولية والتبعات فأتحملها أنا وحدي.

أعرف أن كلانا بهت وجهه تماما (كنت أشعر أن الدم تصلب في عروقي)، ساد في الغرفة صمت مؤلم للحظات، نعم، قلب "مينا" بالتأكيد توقف عن الخفقان في تلك اللحظة، ثم صدرت صرخة رعب قصيرة توجهت بعدها "مينا" نحوي والدهشة تملأ عيناها.

- ماكس! ماكس! يإلهي ..

لم أبرح مكاني عند الباب وصوبت نظري نحوها بلامبالاة.

- ماكس ، ما يحدث...؟!

كم كانت "مينا ريدنبرج" مسكينة وبائسة، إلا أن كلانا أمسك بالآخر بصورة رائعة ، هذه هي الحقيقة، ألم أنظر لها نظرة مليئة بنشوة المنتصر ثم توجهت نحو الأريكة بكل هدوء وأشعلت السيجارة

بأصابع ثابتة ؟ .. نعم لقد فعلت ذلك تماما ، غير أن كل هذا ممزوجا بضباب أرجواني اللون لكن للحظة قصيرة جدا.

آه ، ليتها لم تفعل تلك الإشارة الطفولية من يدها ، ليتها لم تفعل، هزت "مينا" يديها بطريقة غريبة ، نعم ، فالأطفال الصغار يهزون أيديهم الصغيرة هكذا عندما يصابوا بحالة من اليأس والعجز أمام شيء غامض ومخيف .. مازلت أفكر في هذه الحركة المضحكة التي قامت بها "مينا" .. ها ها ، ألقت يديها في الهواء ثم أخذت تحركهما أمام وجهها بطريقة مضحكة ويائسة، أعترف بكل تواضع أنني لو لا أملك تحت هذا المعطف قلبا صناعيا بدلا من القلب لطبيعي لكنت انخرطت في البكاء فعلا!

ها ها ، ها هى تهز يديه..

تماما يا "مينا"..

لقد فهمت كل شيء ، فلم تنبس بكلمة، تسمرت أمامي كالحجر ، ليست في موقف دفاع عن النفس أو تمرد ولا حتي دليل كراهية ، لا ، لا تنم رعشتها الرهيبة عن شيء من هذا .. أسدلت يداها بعجز وطأطأت رأسها بشدة وعلق نظرها بلامبالاة على نقطة بعينها على السجادة هكذا كانت! .. بدت "مينا رايدنبرج" بائسة وضئيلة، فيما كانت تفكر؟ .. ما هى حالة الاضطراب التي سيطرت على تفكيرها المشلول؟ أم أن كل شيء صار واضحا ومفهوما بالنسبة لها؟ من يدري ومتي سنعرف؟

لقد لزمت الهدوء عندما لمست يدي فستانها.

كم هى عذراء رائعة ، بيضاء!

يا لها من معجزة! لقد ملأ الغرفة ضوء ناصع عندما ظهر من صدرها القميص الباتيستة الذي أظهر جسدها الرقيق والملفوف ..

كم هو رائع أن ترى لأول مرة عشيقتك عارية! ، وخاصة عندما تكون عشيقة مثل "مينا رايدنبرج" لها مثل هذا الجسم الرائع والمتكامل وهذه الخطوط الأنيقة التي أسجلها هنا للتاريخ والتي تعتبر لكم جميعا منذ الأزل وحتى نهاية الكون هدفا منشودا وفكرة وحقيقة ، إنها الحياة ذاتها وغاية كل شيء، تلك الصفات التي طالما تمنيتموها بشدة منذ الأزل، وحتى قبل أن تظهر بين البشر، تلك الصفات التي لم تغب مطلقا عن بالكم رغم ما يشوبها من غموض مؤلم، تلك الصفات التي تهتفون لها وتلعنونها آلاف المرات يوميا، تلك الصفات التي جعلت ليلكم كنهاركم ونهاركم كليلكم والتي هزت كيانكم حتى أعماق أعماقكم ، وملأت روحكم بلهيب متقد جعلكم تولون من شدة الكرب، وفجأة! هى بين يديكم ، عارية أمامكم ، عارية تماما!! وأنتم ترتوون بأنظاركم الحارقة من كل تفاصيلها المثيرة التي شكلّت هذا المخلوق الجميل، إنها هنا ، بكامل هيئتها، وأنتم تلقون نظرة المنتصر على يأسها وبأسها وتستمتعون بنشوة المضطهد .. تسمون إلى الأعالي ، تنفتح أمامكم آفاق رحبة تسمو بكم إلى مصاف الآلهة، ينتابكم في نفس الوقت شعور جارف بالعجلة من أجل الانقضاض على هذا الجمال البشري وإذلاله! .. من أجل سحق هذا الجسد الأبيض الناصع والغوص فيه والقضاء عليه إلى الأبد .. نعم ، هذا ما تريدونه!

أتذكر بما لا يدع مجالا للشك حركة عنيفة عندما أردت أن أمسك بخصرها لأسحبها نحو الأريكة .. نعم ، لقد تحولت عجلتي إلى وحشية، لكن ألم توقفني نظرة "مينا" الجادة؟! .. شيء غريب ، كيف تغيرت فجأة وعلى غير المتوقع، أمر ما حدث لها ، أمر غريب ومفاجئ، ماذا حدث بالضبط؟ .. نعم ، فجأة وكأنها صارت ذات أربعة

رؤوس، نعم، وكأنها تحولت إلى تمثال أبيض من المرمر ، هالة من الإجلال أحاطت بها فمنعتني يد الإثم من الإمساك بها، نعم ، تحية للسيدة الطاهرة.

يا إلهي! فجأة بدأت أشعر بضآلتي وبؤسي ، وبكل تبجيل سقطت على ركبتي أمام العذراء، وبحركة شديدة الرقة وضعت يدها على رأسي وكأنها غفرت لي مقدما كل ما أعددته لها.

أمر مضحك! .. وفجأة انتفضت من على الأريكة ونزعت من على الحائط صورة "إيرنا" ثم داستها بقدميها بتشنج وغضب شديد وحولتها إلى أشلاء صغيرة ثم بعثرتها في كل أنحاء الغرفة، بعدها سقطت على الأرض وانخرطت في بكاء طويل.

رائع! مرت عشرة أيام تقريبا ولم تظهر فيها أية بادرة بالمغادرة والانضمام إلى الفوج، فقد تبين فجأة أن كعوب الأحذية التي استلمها فريقنا قد ثبتت بمادة لاصقة رخيصة ولن تتحمل مسيرة أسبوع فما بالك بأشهر وأشهر من السير في المستنقعات، يا له من أمر ، أزعج القادة إلى أقصى درجة! ثار القائد وكاد يقتل أحدهم، لكنني على قناعة بأن المورّد الحقير لم تهتز له شعرة في رأسه ، بل من الممكن جدا أن يقوم بتوريد الأحذية الكرتونية لجيشنا الموقر حتى نهاية الحرب وسيحصل مقابل خدماته هذه من أجل الوطن على وسام "فرانتيشك يوسف" وربما سيف أيضا، هذا الأمر نحن نعرفه جيدا.

وليس من المستبعد بالطبع فضلا عن ذلك أن ما ستصل إلى مخزننا من المخازن الرئيسية من أحذية بكعوب جلدية جديدة ستكون

هى الأخرى ملتصقة بمادة رخيصة لكن بإخراج جيد، ولن يبقى لنا إلا أن نذهب إلى الجبهة في تلك الأحذية الكرتونية.

الواقع إذن - وهذا ما يحدث عادة - أنها كانت كل يوم ملكا لي ، لي وحدي! "مينا رايدنبرج"! وهذا أمر طبيعي، هاها! تأتي عندي وقت الغروب كل يوم هائمة ، يملأ عيناها ضوء رطب، طاهرة كالعذراء ، متلهفة بشدة .. نحن عمي!، طرش!، لا نرى شيئا و لا نسمع شيئا، شوق كلانا إلى الآخر أمر رائع ، بل جنوني، عندما يلتقي جسدانا نصير كالحيوانات الضارية ، شفاهنا حمراء، ملتهبة ، جسدانا تملأهما البقع الزرقاء من آثار أصابعنا، جسدانا يتحدان ، نود أن يذوب كل منا في الآخر لنصير جسدا واحدا وروحا واحدة ، نتطلع إلى نشوة الفناء، دون أن ينبس أحدنا بكلمة .. لماذا الكلام؟ لا داعي له، لا يوجد شيء يستحق الحديث عنه، فحواسنا تتحدث بلغة رهيبة جدا، وأي كلمة أخرى ستكون تافهة لا قيمة لها على الإطلاق، إن ما نشعر به لشيء رائع، وإن سألني أحد ما عما كان يدور من حولنا فلن أجد إجابة.

رأيت "مينا" يوم الأحد بالصدفة البحته (؟) في الكنيسة بالمدينة القديمة، كانت جاثية أما تمثال العذراء وهى ترتدي جوربا حريريا، الحقيقة هى أنها أسدلت رأسها أكثر تواضعا من ذي قبل، فهل كانت روحها الصافية تنن من وطأة ذنب ثقيل وكبير ينذرها بمشاهد من جهنم؟! .. أمر مخيف، ياله من أمر مخيف! منذ وقت ليس بالبعيد جثت على ركبتيها في نفس المكان وأمام تمثال العذراء هذا ، رددت نفس الصلوات .. لكن وكأن هذا قد حدث من زمن بعيد، لقد مرت الأيام وتغيرت الأحوال .. هل هذا ممكن؟!

كانت تضرب على صدرها بندم ، لم تظهر عليها تلك البقع الملونة ، فقد كانت السماء ملّبدة بغيوم داكنة ، وكانت العتمة قاتلة في المحراب، هل شعرت بوجودي؟ هل كانت تفكر فيّ أصلا؟ .. إن كان الجواب نعم فكيف تراني في هذه اللحظة؟! .. تقدمت منها بهدوء ولا يراني أحد ثم ألقيت قبلة خفيفة على مؤخرة عنقها .. هاها! أسرعت مقتربة من تمثال العذراء وأمسكت بيأس قدميه وكأنها رأت الشيطان في أبهى صوره!

أفكر في الوقت وكيف يمر سريعا وتقترب الساعة التي أنهي فيها عملي الرائع، أنا فخور بنفسي ومن الهدوء الذي يسيطر عليّ ولا أشعر بأي تردد، غير أنني أفكر في هذا باستمرار ، نعم ، طوال الوقت أفكر في اقتراب تلك الساعة وأتصور كل شيء بصورة غاية في اللامبالاة.

وهنا أريد أن أسجل شيئًا ، أمرا ، أو بالأحرى حقيقة تبعث في نفسي شيئا من الدهشة .. تسود من حولي هرولة مجنونة وتدمير لأرواح بشرية لم يعرفه التاريخ من قبل، إن العالم يُدمَّر من جذوره ، دول تختفي ومجتمعات تذوب .. نعم، تحدث أمور عجيبة ، غاية في القذارة ، إن الجنس البشري بالكامل يكتنفه جنون القتل المتبادل، صار إهدار الدم من أفضل الفضائل ، مئات الآلاف يموتون يوميا في جميع أنحاء العالم .. لكن هذا الأمر لا يعنيني ، فكل هذا لا قيمة ولا وزن له عندي! ،وكأنه غير موجود بالمرة ولا يخصني في شيئ، نعم، لا أشعر بشي في قرارة نفسي يربطني بهذا كله! .. الأسرة الحاكمة؟! ، الوطن؟! ، القومية؟! ، اللحظات الكبرى؟! ، الوطنية؟! ، وحدة الهدف؟! .. أنا لا أفهم هذا الكلام ، فهى أمور غريبة عني! ، بعيدة ، لا علاقة لي بها من قريب و لا من بعيد، إن علاقتي بهذه

الأمور علاقة سطحية وآلية تماما، يظل عالمي هو "أنا" المنغلقة بإحكام أمام كل التأثيرات الخارجية ، أشعر أنني وحيد تماما في هذه الفوضى المجنونة التي تسود العالم وليس لدي الرغبة في الخروج من وحدتي هذه.

نعم ، أنا منشغل بمشكلتي الشخصية وليس عندي وقت لمتابعة هذا العبث كالحرب العالمية وما يتبعها من آثار، كل ما أعرفه هو أن هناك إمرأة تعيش في هذا العالم وهى "مينا رايدنبرج" ، عشيقتي البيضاء الرائعة وكل اهتمامي في هذه اللحظة منصب على ما سيحدث في الساعات القادمة!

توجد في مهنتنا عادة سخيفة (بدأت منذ عامين) وهى أن يلتقي الضباط من نفس الكتيبة قبل مغادرة كل كتيبة مشاه وذلك في لقاء ترفيهي مجمّع ، وغالبا ما يتم اللقاء خارج مدينة "سان أيجنن" عند "النسر الأسود" حيث يقدمون نبيذ "أوجست" الجيد وفي مقدور الإنسان أن يمرح دون مضايقة من أحد وحتى الصباح .. يوجد هناك بيانو قديم متصدع وجيتار كبير قاتم اللون وفتاة لطيفة تعمل بالحانة والكثير والكثير من المرح، يمكن أن تذهب برفقة الفتيات، يُنظم هذا اللقاء بجدّية ، لكن عندما تكون أمسية كهذه مع جلسة الترفيه التي نوهت عنها فممنوع منعا باتا اصطحاب سيدات، يجب العلم بأن مثل لقاءات الترفيه هذه تكون مصحوبة بإسراف في تناول المسكرات وكل شيء فيها يكون مباحا ، بدأً من تحطيم الكؤوس وحتى تحطيم الرؤوس! ، وغالبا ما ينتهي المشاركون في لقاء كهذا في حالة استرخاء جماعي تحت الطاولات المتكسرة ومعدتهم مخرّبة ، النقطة الأساسية في هذه الأمسية هو أنه يشارك فيها كل من هو في صف

الضباط بداية من قائد الكتيبة وانتهاءً بأصغر ملازم، بالإضافة إلى هذا يجب أن نذكر أيضا أن الأحداث والحقائق لم يكن لها أهمية في الفوج بنفس أهمية نبوءات المنجمين .. كان سائد أن ما تحقق حتى الآن رغم أنه ليس كل شيء لكنه كثير ، وإن كان هناك أمر لم يتحقق بعد فالعيب ليس في نبوءة الروح التي استحضروها ، بل في فشل من وكل إليه الأمر في تحقيق النبوءة .. من بين الأرواح الأكثر شعبية واستحضارا هو "ميتامون" الذي اكتشفه مؤسس تلك اللقاءات الضابط "كوباهياص" في أحد كتب علم الآثار المصري، كانت إجابات "ميتامون" في غاية الحكمة، كان يبدو أنه على علم بكل شيء وصبره لا حدود له، كان روحا جيدة وكريمة، لم يرفض لأحد الحصول على وسام الصليب أو إمكانية ترقية كبيرة، لم يكن يحب توزيع حالات الاستشهاد في الحرب، بل كان يقوم بتأمين الموت المريح في السرير وهو أمر لقى استحسانا من الجميع.

وصلنا في المساء إلى "سانت أيجن" بعد ساعة تقريبا من السير عبر طريق محفوف بالأشجار الرائعة ، خلفه وديان جميلة، خرجنا من المدينة في أربعة صفوف مكتظة بالضباط – هكذا كانت العادة- وعندما صرنا وحدنا وسط الوديان بدأنا نغني كل ما يخطر على بالنا، تقدم المسيرة الضابط "مارات" الذي كان يحرك سيفه ليصدر صوت يشبه صوت آلة المندولينة ونحن ندق بأقدامنا بحماس حتى اختفينا تماما وسط سحابة من التراب، نعم، لم ننعم منذ وقت بعيد بمثل هذا الارتياح، ليس هناك أجمل من توديع العالم، فكل شيء ممكن في غياب اليقين ، هذا الشعور الرائع ! فالإمكانيات متعددة.

وصلنا إلى "النسر الأسود" وأخذنا نعلّق قبعاتنا على الشماعات، ثم تناولنا أول كأس من نبيذ الروندي، ياله من شراب رائع وحاد ، تناولناه مع الخبز المالح، كم هو جميل صوت الكؤوس وهى تخبط على الطاولة في آن واحد بينما يعزف لنا الملازم أول "زيلار" أحد المارشات القديمة في الفيلق.

قبل منتصف الليل بقليل أحضر الضابط طاولة خشبية طويلة مصنوعة من ألواح رقيقة (كان يصنعها دائما في ورشة النجارة) ثم وضعها في منتصف الحجرة ، وبإشارة من القائد "مارات" خفض الأنوار ثم انصرف برفق من عند البار.. أما نحن فبالطبع التزمنا الهدوء احتراما يليق بالموقف، ولم لا؟ فبعد قليل سنكون شهداء على أمور غامضة وفي غاية الاثارة! ، ثم جلسنا حول الطاولة .. عجبا! ظهرت علي وجوهنا ملامح احتفالية غاية في الجدّية، أشار القائد "مارات" إلى صغار الضباط الأقل خبرة بأن يتصرفوا بشكل لائق وإلا فلن يرد "ميتامون" على الأسئلة، وعلى الفور ساد صمت القبور على الغرفة القاتمة، اخترقت هذا الصمت أصوات دقات قلوب ما يقرب من عشرين من صغار الضباط المرتبكين، لم أرى في حياتي أمرا مضحكا كهذا ، هاها! كم كانوا جميعا مشدوهين خوفا من أنفسهم.

لم يدم استحضار "ميتامون" طويلا،فقد جاء على الفور وكأنه كان ينتظرنا بفارغ الصبر مختبئا هناك في أحد أركان الغرفة! .. عندما سأله "مارات" إن كان يريد أن يعطى إجابات صحيحة لأسئلتنا ، فأجاب متحمسا بالإيجاب : نعم! سيطلعنا على كل ما نريده، وبالفعل أوفى بعهده، فلم يدلى بهذا الكم من المعلومات الشافية كما فعل بالأمس، هذا ما قاله الجميع بعد اللقاء، وعندما جاء الدور علىّ لزم

الصمت وحدث هذا الأمر الغريب: انفتحت فجأة نافذة تطل على الفناء وأصدرت ضجيجا، ثم تطايرت إلى الغرفة كومة من أوراق الشجر ، على الفور انطفأ المصباح وانغلق الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة (فقد كانت مفتوحة بغرض التهويه) بشدة وكأنها طلقة رصاص من بندقية، نعم ، كان هذا أمرا رهيبا ومن الطبيعي أنه جعلنا كلنا نتسمر في أماكننا، لكن عندما علمنا فيما بعد بهبوب عاصفة شديدة في الخارج صار الأمر طبيعيا.

وكأن "ميتامون" قد سيطر عليه ألف عفريت فبدأ يسخر منا بصورة صارت غير لائقة بالفعل، ألم تهتز الطاولة إلى درجة جعلتنا نبتعد عنها؟! وهذا في حد ذاته كان كافيا .. بدأ في عبثه هذا يدير الطاولة ونحن ندور معها بشدة متزايدة حتى صار الأمر عدوا جنونيا في أنحاء الغرفة ، هاها! وكأننا نتطاير ، وكأننا نهتز ونقفز بصورة مجنونة، هوب، هوب ، هوب، لم نكد نلتقط أنفاسنا ، رؤوسنا تتحرك ووجوهنا احمرت وصارت بلون العفاريت! ، وهنا وفي هذا المجون الرهيب انطلق صوت تكسير حاد لعدة مرات، لقد سقطت الطاولة وتحولت إلى ألواح عوارض خشبية ولم يتبق منها سوى كومة من الأشلاء وسط الحجرة.

أعرف ، نعم أعرف أن الدقائق محسوبة، إن الكتلة الصخرية التي تتساقط من على التل في لحظة غير معلومة ومكان غير معروف تنهار بناء على قوانين الطبيعة القديمة وبسرعة متزايدة وتدمر وتسحق كل ما هو مقدر له أن يعترض طريقها ولا توجد قوة في العالم تمنعها من الوصول إلى هدفها في الوقت المحدد محدثة ضجيجا هائلا.

ماذا؟! .. كتل متساقطة؟! في وقت ما غير معلوم ومكان غير محدد؟! نعم ، بالتأكيد، لكن هل كنت أنا هناك؟! هل كان لي تأثير فيما حدث؟!.. أنا أتساءل: هل الكتلة المتساقطة قد انطلقت من إرادتي وطبقا لخطة محكمة؟ هل كانت في الحسبان؟

لقد سجلت من قبل أن: كل تصرفاتي ، من البداية وحتى النهاية تحددها قوة رهيبة لا ترحم، وأنا أقف حيالها عاجزا لا حيلة لي فيها.. نعم ، كانت هذه ملاحظة جيدة بالنظر إلى حساباتي حينئذ، وكأن ضوءًا قد اشتعل فجأة وانكشف أمر كان مستورا وأرشدني إلى ملامح معارف جديدة .. إنه انطباع مبهم لا أعرف ما هو! ، لكني فقط أخمن معناه!

لقد حدث ما حدث.

نعم ، حدث هذا منذ أربع ساعات .. منذ أربع سويعات قليلة ، هنا ، في هذه الأماكن ، وعند الطاولة التي أكتب عليها الآن ملاحظاتي .. مازال كل ما حولي على حاله كما كان عند رحيلها، لم أحرك شيئا من مكانه، لم ألمس أي شيء، حتى رائحة شعرها (هذه الرائحة العذبة الجميلة) مازالت تعبق المكان، لكنها ليست هنا، انصرفت ولن تعود نهائيا إلى هذه الأماكن، كم هو شعور مريح وأنا أكتب : "نهائيا"! .. أنا لا أعرف كلمة أقوى من هذه الكلمة، إنه تعريف لليأس نفسه ، ما هى إلا تعبير عن اليأس في أجل صوره ، نهائيا! ، نهائيا!!

نعم أنا هادئ ، لا شيء يشغلني، حالي كما هو دائما، منذ قليل تناولت عشاء تحت في المطعم، شربت كأسين من البيرة وتبادلت الحديث بشكل متزن مع النقيب العجوز "شتاين" وأثنيت على النادلة الشابة "آننا" - كالعادة- بأنها جميلة ونشيطة ومجاملة، ثم صعدت

بكل هدوء إلى الشقة ، هنا إلى الغرفة وأشعلت سيجارة كعادتي عندما يطيب لى الطعام .. أكرر: أنا هادئ بشكل كبير، حالي كما هو دائما، لا أشعر بأي شيء على الإطلاق وكأن كل ما حدث هنا في هذه الأمكنة قبل أربع ساعات لا يخصني في شيء ، بل يخص شخصا ثالثا لا أعرفه، أعرف أيضا أنني عندما أغلق يومياتي أذهب إلى السرير وأطفئ المصباح وأنام هادئا كالعادة حتى الصباح ثم أذهب إلى الثكنة وأنجز مهماتي كالعادة.

نعم ، أنا إذن رجل بقلب صناعي بدلا من قلبه الحقيقي، وإن كنت شككت في هذا الأمر يوما ما فأنا الآن لا تساورني في هذا أية شكوك! ، آه ، الآن يمكنني أن أكشف عن صدري لزائر الليل القادم من "القوقاز" .. غير أنني أشعر في داخلي ومن حولي بشيء يخدرني، نعم ، عندي شعور غريب بأنني مخلوق من معدن ، رغم أنني أتحرك بمرونة معتادة إلا أنني أشعر بأن أعضاء جسدي وكل ما في داخلة وكأنه من حديد! وحتى أفكاري تبدو ثقيلة ورمادية كالحديد وكل ما حولي يبدو وكأنه محشوا بهذا المعدن الكئيب، وحيثما أذهب أحمل معي هذا الثقل الرهيب، يتراءى لي كثيرا بأنه يسقط علىّ ويريد أن يسحقني ويحولني إلى بقعة على الأرض، أه ، ياله من جدار حديدي قاتم!

انظر ماذا حدث:

في الساعة الخامسة مساء أسرعت من الثكنة عائدا إلى البيت حيث من المفترض أن تنتظرني هناك "مينا"، كنا نلقي دائما في نفس التوقيت، لكم استعجلت العودة ، لكم اشتقت إلى حضنها منذ الصباح، نعم، لم اشتاق إليها من قبل كما اشتقت إليها بصورة

جنونية وملحة في ذلك اليوم، في كل ما قلته وفعلته وفي كل مكان ذهبت إليه كنت أرى دائما عينيها الكبيرتين اللامعتين، آه ، لقد ملكت عشيقتي الجميلة البيضاء كل أفكاري، أكرر: لم أشتاق أبدا من قبل إلى "مينا" بمثل هذا الإلحاح كما شعرت في هذا اليوم .. أنا على قناعة بأنني كنت قد أجن إن لم تستطع "مينا" الحضور أو حدث عائق ما يحول دون ذلك، الآن أنا مطمئن، فـ"مينا" انتهت، (على الأقل بالنسبة لي)،

في هذه اللحظة وبعد أن انتهى كل شيء يمكنني أن أقرر أيضا أنني طوال اليوم وقبل أن أتخطي عتبة الشقة لم أفكر ولو للحظة بأن اليوم قد يكون هو اليوم الأخير، لا وألف لا ، لم يكن لي سوى مطلب واحد وهو أن أجثو عند قدميها وأحتضن بعنف قدميها البيضاء وأهمس في أذنيها بتلك الكلمات الجميلة التافهة التي يقولها العشاق منذ بداية الخليقة .. نعم، أردت أن أشرح لها كيف أحبها بعنف حتى درجة الموت، أنا الرجل ذو القلب الصناعي!! ، حساباتي؟! هراء!، وكأنها مُحيت من ذاكرتي، وكأنها لم تكن.

لم تظهر إلا عندما فتحت باب الشقة ورأيت مينا تقف في وسط الغرفة بشعرها المسدول، لقد تجمد في نفسي فجأة كل شيء، لا ، لا ، لقد أخطأت التعبير، شيء آخر حدث لي: عندما وطأت قدمي الشقة وأغلقت الباب فكأن شخصا غريبا انطلق بعنف شديد من أعماق أعماقي إلى ذاتي ودخل هو نفسه وحل محل ذاتي! .. أقول "شخص غريب" ، لكنه شخص أعرفه ، نعم ، وكأن ذاتي خرجت لتترك مكانا لذاتي الأخرى العنيدة والغبية التي لا ترحم، أو شيء من هذا القبيل، الغريب في الأمر: بمجرد أن غادرت ذاتي الأخرى المكان ، رجعت إلى نفسي ، لكن تلك النفس المصنوعة من الرصاص!.. نعم نعم ،

الرصاص! ،أعتقد أن هذا الرصاص سيظل إلى الأبد في داخلي ومن حولي ، رصاص قاتم.

لم تكن "مينا رايدنبرج" فاتنة وجذابة كما كانت اليوم مساء، عندما وجدتها تقف منتظرة وسط الغرفة بشعرها الكستنائي المسدول ، طويلة ونحيفة وبيضاء شاغرة فاها (كما يفعل الإنسان من الغيرة) .. بنظرتها الدفينة اللامعة جسدّت اتحاد النشوة والبراءة في أجمل صورها.

نعم ، "مينا رايدنبرج" تجسد في هذه اللحظة جميع صفات جنسها، وياله من سحر عندما فتحت ذراعيها لكي تستقبلني!

أتذكر كل كلمة، كل شيء مازال يعيش في داخلي بجلاء لا مثيل له.

- أنا هنا أنتظر منذ خمسة عشرة دقيقة و"ماكس" لا حس و لاخبر!

هكذا قبضت أساريرها بطريقة لطيفة وهى تتعلق بصدري:

- أين كنت طوال هذا الوقت؟!

فاحت عن قرب رائحة شعرها الرائع! آه ، لو لم أحمل في صدري أمرا مريبا لكنت أصبحت ثملا إلى درجة لا توصف، قفلت لها بثبات واضح:

- هل تأخرت بالفعل؟! .. أعتذر، فالخطأ في ساعة البوفيه الحقيرة! لكني أسرعت على الفور، والآن أنا هنا.

ابتسمت برضا قائلة:

- نعم ، أعرف.

غير أنني لم أبادلها الإبتسامة، لم أستطع، لم يسمح لي هذا الكئيب، وفجأة سادت لحظة صمت ، مترددة في أولها ثم صارت سخيفة أكثر فأكثر إلى أن أصبحت ثقيلة جدا، وعلى الفور صار جليا أن شيئا ما سيحدث بلا جدال.

شعرت "مينا" هى الأخرى بذلك فنظرت في عينيّ بشغف قائلة:

- ماذا حدث؟!

سؤال رائع! كيف توقعت أن شيء ما "حدث"؟!

لم أرد .. مرة أخرى كنت عاجزا عن الرد، فمن جديد منعني هذا الكئيب، هنا تراجعت "مينا" خطوتين وراحت تتفحصني من رأسي حتى قدمي وهى عاقدة الحاجبين.

- لماذا لا تخلع ملابسك؟

وأضافت على الفور:

- أتريد أن تبقي طوال الوقت مرتديا الزي العسكري؟ .. لماذا لا تضع الكاب من على رأسك؟!

بم أجيبها؟! .. فضّلت الصمت، غير أنني أخذت أنظر إلى "مينا رايدنبرج" وكأنني أراها من خلف حجاب، انطفأ بريق عينيها بالتدريج كما تنطفئ مصابيح الشوارع في ساعات الصباح المبكرة واحد تلو الآخر.

ثم جاء السؤال الأخير:

- "ماكس" ، فسر لي ما يحدث؟

- أتريدين أن تعرفي؟!

.. تحدثت إليها أخيرا بصوت بغيض غريب عني أنا الآخر! ، (الحق يقال أنني لم أتحدث بنفس القسوة وبنفس هذا الصوت

المتحجر من قبل) ..رأيتها وقد شحب وجهها وضاعت أنفاسها، لقد بدأت "مينا رايدنبرج" تفهم ما يحدث!

أمر غريب: لم أستطع أن أؤمن في قرارة نفسي بأن هذا يمكن أن يحدث، هذا الشيء الكامن في قرارة نفسي والذي أحبه وأتجاوب معه ، ودائما ما أردت أن يسيطر عليّ تماما، قد عارض منذ البداية فكرة حدوث ما حدث، نعم ، لم أكن أري أن أصدق هذا وفي نفس الوقت كنت على قناعة بأن هذا سيحدث بالتأكيد في أقرب وقت بلا جدال وأنه بالفعل لا توجد قوة على وجه الأرض تمنع حدوثه، عندها وعلى الفور فهمت! .. كل ما كان حتى ذلك الوقت غامضا ومبهما ، أو لم أستطع حتى ذلك الوقت تفسيره بصورة سليمة، الواقع أنه ليس لي الاختيار، فأنا أفعل بطاعة عمياء كل ما يمليه عليّ "الكنيب"! .. آه يالله من كئيب! ، إنه ليس إلا تلك القوة الرهيبة التي لا ترحم والتي تحدد كل أفعالي منذ البداية وحتى النهاية وأنا أقف حيالها عاجزا وضعيفا ، نعم، إنها ذلك الشيء الذي جاء من غياهب الظلمات وأنحى بالتدريج ذاتي المضيئة واتخذ لنفسه حق القيادة وقام بإملاء الأوامر وإصدار القرارات بناء على مزاجه، إنها هى الشيطان المخيف القذر الذي يتسلل إلى نفسي في لحظات ضعفي وينصب عرش مملكته الحقيرة، إنها هى القوة التي أشعلت في صدري نارا وأحرقت ببراعة ملعونة كل ما يذكر بأوقات النور، ماكر ، مغتصب ماكر!

وعبثا أقاومه ، فلا طائل من التمرد ، فقد نطق لساني بما قدر له سلفا!

نعم ، لقد بدأت "مينا رايدنبرج" تفهم ما يحدث، لا ، لا ، إنها فهمت بالفعل! ، فلقد رأيت هذا مكتوبا بوضوح على وجهها، فهى في

الواقع قد فهمت كل شيء ووعيته جيدا ، كما لو أنها كانت قد استعدت لهذه اللحظة من قبل، لقد رأيت أنها فهمت ووعيت لكنها في نفس الوقت عفّت وتكيفت بخنوع مع ما حدث، آه ، نعم ، كانت على استعداد أن تضحي وتتحمل الذنوب نيابة عني!

لقد سيطر عليّ الغضب الشديد من هذا الاستسلام المتناهي، فصحت فيها بعشوائية قائلا:

- سوف أشرح الأمر ، لماذا تعجلت الحضور؟!، لكي أقول لك في أقرب وقت وأمام عينيك أنني أكرهك! ، أتسمعين؟! .. أنا أكرهك! ، نعم ، أكرهك من كل قلبي ، بكل نبضة في عروقي ، بكل عرق من عروقي أنا أكرهك! ، أكرهك منذ البداية ، أكرهك حتى قبل أن تولدي!، ومنذ أن كنت هائما في ظلمات العمر ، دائما ، دائما كنت أكرهك يا "مينا رايدنبرج"! أكرهك عينيك الكبيرة التي تشبه عيني الظبي والتي تخبئ لهيب جهنم ، أكره شفتاك الأرجوانية التي لها مذاق الدم وتحمل ثنياتها أعتى سموم العالم ، أكره شعرك الرائع الذي يقلق سكينة نفسي ، أكره أحضانك الرقيقة التي تجعل منك فتاة ضعيفة ، أكره أحضانك الدافئة التي تنتشر منها رائحة عفن ونتانة ، أكرة همساتك الماكرة التي تنشر على شباك الزيف والخداع ، أكرهك!! ، نعم ، أكره كل جزء فيك يا "مينا رايدنبرج" بكل كياني! ، أكره - خصوصا- روحك البائسة الضعيفة! *

- ماكس! كفى!

- كفى؟!! .. إنني لم أبدأ بعد يا عزيزتي، لقد قلت لك فقط إلى أي مدى أكرهك وأمقتك .. أتفهمين؟!! أتدركين مدى كراهيتي لك؟! ولا تنسي ، أنا ألعن تلك اللحظة التعيسة التي رأيتك فيها أول مرة وتعرفت عليك، يا إلهي! كانت هذه أسود لحظة في حياتي! ، حيث انسل إلى روحي هذا "الكئيب" لكي يشكلها تبعا لخطته الكريهة ، نعم، عيناك الداكنة البرينة هذه تبعث في نفسي جميع أهوال جهنم! لقد ساهمت أنت بدورك في هذا العمل الدنيء عندما أطلقت من على التل كتلة صخرية راحت تسقط، والواقع أنك لم تتوقعين أن هذه الكتلة ستسحقك أنت أيضا، يا له من قصر نظر! .. لم أشرح لك بعد يا "مينا رايدنبرج" إلى أي مدى أحتقرك، أنت لست سوى وعاء حقير لأدنى وأحط أقدم الغرائز ، أنت تجسيد للوجه الأسود للبشرية ، نعم، أنت منبع جميع الشرور، لقد خُلقت الوردة لكي تفوح بأذكى العطور أما أنت "مينا رايدنبرج" فقد خلقت لكي تجعلي من الثديين الدافئين النابضين عضوا صناعيا بغيضا، حتى الاحتقار لا يعبر عن كل مشاعري، أنا أتبرأ منك .. نعم! ، أتبرأ منك كما أتبرأ من أعظم ذنوبي ، تثيرين في نفسي البغضاء ، أنت قذرة ، قذرة! لقد جاوزت وصايا الكتاب القدس ، فأنت أقذر باثني عشرة مرة! آه ، انصرفي ، انصرفي أيتها المسخ الدنيء ، اغربي عن وجهي ، ابتعدي ، لا تلوثي هذا الهواء أكثر من ذلك.

كهذا أو شيء من هذا القبيل تحدثت، لا ، بل صرخت ، وهجت حتى تطايرت الرغوة من فمي.

.. وماذا عن "مينا رايدنبرج"؟ بُهت وجهها وراحت تنظر إليّ بحزن شديد وكيف خرجت ثورتي عن السيطرة، لقد هجمت عليها وأنا أعصر قبضتي ، نعم، أمسكت بكتفها وأخذت أهزها بعنف حتى كدت ألقي بها على الأرض، آه ، يا لها من

نشوة رهيبة وخطيرة، ما الذي دفعني أن أصفعها بكفي على وجهها الرقيق الغالي؟ ، كم حاولت أن أتمالك نفسي عن أن أنزع شعرها الرائع العَطِر من جذوره ، بالكاد قمت بسحب يدي .. لقد انثنيت أصابعي استعدادا لأن أرشقها في عنقها الأبيض الرقيق، تحركت في نفسي آلاف الشياطين لكي أمزقها إربا هنا على الأرض، آه ، مازلت أشعر حتى الآن برعشة خطيرة في أصابعي.

أما هى فلم تنبس بكلمة ولم تحاول حتى الدفاع عن نفسها، وكأنها فقدت وعيها، أعتقد أنني لو لم أفتح باب الحجرة فجأة وأطردها إلى الخارج لكان الأمر انتهي على غير ما انتهى!

لا أتذكر التفاصيل الأخرى، غرقت في ضباب باهت، مازلت أتذكر أنني واصلت الصراخ فيها وهى في الدهليز أمام جمع من البشر هالهم الأمر:

- لا تتركوا هذه العاهرة تأتي إلى هنا، يجب أن تطاردوها بالسوط!

هذا هو الإنسان ذو القلب الصناعي!، لقد قلت ، أنا كإنسان مصنوع من الرصاص ، لا شئ يتسرب إلى داخلي، حائط منيع

يعزلني عن الأشياء والناس .. حائط يتحطم عنده كل شئ، أنا منعزل عن العالم بصورة محكمة، أنا كأمير بولونيا في قصة "تولوستوي" الذي انعزل عن العالم قبل موته بقليل وصار لا يدرك أي شيء وانطوى على نفسه، الواقع أنني لست منطويا على نفسي، أقول أنني إنسان مصنوع من الرصاص ، عقلي وأفكاري من الرصاص ، ما تكاد تولد فكرة حتى تسقط على الأرض، أنا لست منطويا على نفسي أنجز أعمال كالآلة ، أمشي وآكل وأشرب وأقود الجنود وأستمع إلى النكات وأنتقد السيدات، كل هذا لا يؤثر فيّ، أكرر! ، أنا لا أدرك أي شيء ، أنا منعزل عن العالم بطبقة من الرصاص الصلد.

مر يومان على ما حدث "هذا" .. أقرأ اليوم في جريدة "سالزبرجر بوتا" هذا الإعلان:

"مصرع سيدة مجتمع بطريقة مأساوية"، عثرت الشرطة اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر على جثة سيدة شابة ملقاة في الغابة بالقرب من مدينة "سالزبرج" أسفل تل "ماريا بلان" وقد تحققت الشرطة من هوية السيدة وهى الآنسة "فيلهلمينا رايدنبرج" ابنة المستشار المتقاعد السيد "ايريخ رايدنبرج"، هذا ولم يتم العثور على أية آثار عنف على الجثة، حدثت الوفاة طبقا لتقرير الطب الشرعي نتيجة أزمة قلبية مفاجئة أصيبت بها المرحومة أثناء جولتها بالغابة الجميلة أدت إلى وفاتها في الحال، وقد أثار الحادث المفجع الحزن الشديد والتعاطف العميق، فقد كانت المرحومة معروفة بجمالها وطبيعتها السمحة ، كما كانت محبوبة بدرجة غير عادية في مجتمع سالزبرج، والمثير للعجب أن المرحومة لم تعاني من قبل من أية مرض قلبي وقد أتتها الأزمة القلبية بصورة مفاجئة،

نذكر أيضا بأن الآنسة "مينا رايدنبرج" كانت مخطوبة للمحامي الدكتور "ويليام شرودر"، نتقدم بكل الأسى للأسرة الكريمة المنكوبة بخالص العزاء."

آه ، يالسعادتي!!

نعم ، لقد هوت الصخرة بقوة لا حائل أمامها وسقطت إلى أبعد نقطة في طريقها، تدمر وتسحق كل ما يعترض طريقها ومن المؤكد أنه سيعترضه.

خرجت اليوم بعد الظهيرة في نزهة في غابة سالزبرج حيث الجو جميل وهادئ ويبعث على السكينة، قابلني هناك المحامي "شرودر"، لم أندهش لرؤيته على الإطلاق، بل كنت أتوقع أن يأتي، كان حتما أن نلتقي في هذا المكان، فقد أراد القدر - هذا المنظم العبقري للصدف - أراد أن نلتقي ، ربما منذ أن كان المكان لا يسكنه سوى الضباب .

كانت على وجهه علامات الهدوء مثلي تماما .. ألقي كلانا التحية على الآخر باللياقة المتعارف عليها (إلى أي مدى تصل العادات والتقاليد!) وعلى الفور تقدم "شرودر"مني وقال:

- ربما ليس من الضروري أن نتعرف على بعضنا.

أجبته قائلا:

- نعم ، فنحن نعرف بعضنا البعض.

ثم مددت له يدي للمصافحة فلم يرد .. غبي!

ثم واصل حديثة بنفس الهدوء قائلا:

- أتمني أنك ربما تعي العواقب التي ستنجم عن لقاءنا الغير مرتب هذا.

- أظن أنني أعرف!

نزلنا من على التل إلى الرصيف الذي يمتد من عند النهر إلى داخل الغابة، سرنا عليه طواعية بدون أن نقول كلمة حتى توقفنا في أقرب مرج يتوسطه تل صخري، فأشار المحامي إلى التل وقال:

- هنا حدثت الوفاة .

التفت بفضول!

- عثرت الشرطة عليها بعد ظهر أمس هنا، لقد طلبت منهم أن يشرحوا لي الحادث بالتفصيل، وقد جمعت اليوم قبل الظهيرة الصخور التي كانت تحتها، أترى؟ كانت هكذا مستلقية.

استلقى على الأرض ليصف لى كيف رقدت، وجهها منكفأ على الأرض ويداها مضمومتان على صدرها، ثم نهض وأزال التراب من على ساعديه بعناية.

أخرجت من جيبي حافظة التبغ وعزمت على المحامي قائلا:

- أتدخن؟!

- شكرا ، أنا أدخن السيجار فقط.

ثم وضع يده في جيبه وأخذ من الحافظة تبغا ثم قام بلفه بعناية ثم أشعلنا السجائر.

تمتم في سحابة الدخان قائلا:

- غبي هذا الطبيب ، يقول أنها سكتة قلبية مفاجأة! لقد قتلوها ، ألقوا بها في الأرض ، أسلموها إلى مخالب الموت ، هذا ما حدث، ما رأيك أيها الملازم؟

بدلا من أن أجيبه سألته:

- وماذا سنفعل إذن؟! هل لديك مسدس؟!
- نعم ، وأنت؟
- نعم.
- رائع!
- المشكلة هى على ما أعتقد في أن المتصارعين يعاقبون اليوم بالنفي والسجن العادي، وطبقا للقانون الساند فكل القضايا يتم إرجاءها حتى نهاية الحرب، أتريد أن تنتظر إلى هذا الوقت؟
- حتى يقتلك شخص آخر؟!! .. إطلاقا!
- عندك حق ، يجب أن ننهي هذا الأمر فورا ، لكن كيف؟!
- من الناحية القانونية ليس لدينا شهود.
- شهود لتجعل من أحدنا قاتل؟! لا ، هذا مستحيل، دعنا نفكر في طريقة أخرى.

جلسنا على الحشائش وأخذنا نمعن التفكير، كم هى جميلة آلاف الروائح التي تفوح في الغابة ، كم هى عذبة زقزقة عصفور قريب منا يغني ، طائر القراع ينقر في الشجرة بانتظام منسق ودقيق، يالها من روعة! .. أما كلانا هنا فمهموم بإيجاد طريقة متقنة ومحكمة يقتل بها الآخر.

وأخيرا قال "شرودر":

- عندي اقتراح.
- تفضل.

ثم راح يتحدث بصوت هادئ وهو ينظر بحدة في عيني:

- من المؤكد أن واحد منا يجب أن يبقى على قيد الحياة، هذا أمر لا شك فيه ، أليس كذلك؟ .. الأمر يتطلب عمل كامل وليس منقوصا، إما أنت أو أنا، هذا أمر واضح، إن الصراع محفوف دائما بخطر أن الطلقات تفرغ بدون نتيجة أو أن الجرح لا علاج له، فلماذا يطلق كل منا النار على الآخر بينما يمكن أن يتولى كل منا أمره بنفسه بدقة أكبر، أقترح أن نجري اقتراع ومن يخسر يقوم بإطلاق النار على نفسه في الحال، أتوافق؟!

- أوافق!

بعد أن فرغنا من تدخين السجائر وقفنا ثم أخرج "شرودر" الأجندة من جيبه ونزع منها ورقتين كتب فيهما اسمينا، في واحدة اسمه وفي الأخرى اسمي، ثم قمنا بضغط الورقتين على شكل كورتين وألقينا بهما في قباعتي.

- أتريد أن تسحب أنت أم أسحب أنا؟

أجبته:

- الأمر سواء عندي ، اسحب أنت.

تراجع ثم وضع يده في القبعة، فقلت له:

- انتظر ، كي نتجنب الاشتباه بالقتل تماما فليكتب كل منا على قصاصة ورق أنه قتل نفسه بنفسه وبإرادته.

كتبنا الورقة ثم وضع "شرودر" يده في القبعة للمرة الثانية.

سحب اسمه ! ، امتقع لونه ،لم يستطع أن يمنع أصابعه من الارتعاش، ومن لا ترتعش يده في مثل هذه اللحظة؟! وقال:

- حسنا ، انصرف من فضلك فأنا أخجل من الغرباء.

رجعت سيرا على الرصيف صوب النهر، وبينما أنا أصعد التل سمعت صوت طلقة جافة.

كان شابا رائعا ، هذا المحامي "شرودر"!!

في محطة "انسبروج"

سوف نقف هنا لمدة أربع ساعات، فالسكك الحديدية مزدحمة بالناقلات وقطارات البضائع، شيء ما سيحدث!

عندما عدت إلي البيت عائدا من الغابة جاء نبأ من القيادة بالهاتف بأن الكتيبة تتحرك، وفي اليوم الثاني ، أي بالأمس اتجهت كتيبتنا إلى المحطة تصاحبها حضور المتطفلين ودموع الباكين، كان زملائي يحملون الزهور ، لكنني لم أكن أحمل أية ورود.

اضطررنا إلى التوقف في شارع "لينيتس" القريب من فندقي وتوقفت الكتيبة بالكامل.

سألت قائدي الرائد "فيورللي" الذي يمتطي حصانا وبإمكانه رؤية ما يجري:

- ماذا حدث؟

- جنازة!

فسألت المارة:

- جنازة من هذه؟

أجابني أحدهم:

- ألا تعرف؟! إنها جنازة "مينا رايدنبرج" ابنة السيد "ايريخ رايدنبرج"

ثم صاح أحد الجنود المتدينين من خلفي:

- فلنصلي من أجلها.

في محطة "بوزين"

اليوم أثناء الليل ونحن نمر بمحطة "بريكسن" حيث راح جميع زملائي في سبات عميق تملكني نفس الشعور الذي تملّك من قبل طالب الحربية "بونجاور" ومن بعده الملازم ثان "ويلر"، أنا على يقين في قرارة نفسي بأنني سأجد ما أبحث عنه.

كم أنا هادئ!